الفصل الأول

كان المساء يزحف ببطء على مدينة «نيو القاهرة»، تلك الكتلة العملاقة من الزجاج والمعدن والضوء البارد التي لم تعد تشبه القاهرة القديمة إلا في الاسم. من نافذة شقته في الطابق السابع والأربعين، كان أنور مجدي يراقب خطوط الطائرات الصغيرة وهي ترسم مسارات منتظمة في السماء الرمادية. لم يكن هناك نجوم. السماء فوق المدن الكبرى في القرن الثاني والعشرين كانت دائمًا رمادية، مثقلة بغبار الأجهزة والطاقة.

الشقة نظيفة بشكل مبالغ فيه. كل شيء في مكانه. الأريكة الرمادية، الطاولة الزجاجية، الشاشة العريضة التي تعرض صورًا هادئة لمحيطات بعيدة لا يزورها أحد. حتى الهواء كان مُفلترًا، بلا رائحة، بلا حياة. أنور جلس على حافة الأريكة، يداه معقودتان بين ركبتيه، وحدّق في الفراغ أمامه كمن ينتظر شيئًا لن يأتي أبدًا.

منذ خمس سنوات وهو يعيش هذه الرتابة. خمس سنوات منذ الحادث.

أتذكرها فجأة، كما تفعل الذاكرة دائمًا في اللحظات الهادئة. أخته نورا، أصغر منه بسبع سنوات، كانت تضحك وهي تمسك بحقيبة السفر الصغيرة. كانت متجهة إلى محطة القطار المغناطيسي في الإسكندرية لقضاء إجازة قصيرة مع صديقاتها. لوّحت له من باب الشقة، وقالت جملتها المعتادة:

ـ لا تنسَ أن تأكل شيئًا غير الوجبات الجاهزة يا أنور.

بعد ساعتين جاءه الاتصال. حادث في أحد المنحنيات الحادة. القطار لم ينحرف كثيرًا، لكن العربة الثالثة... انتهت القصة هناك. لم يبقَ منها سوى صندوق صغير من الرماد، وصورة واحدة على جدار غرفته، وصمت ثقيل يسكن الشقة منذ ذلك اليوم.

أنهى عمله في شركة «نيورا تك» بعد الحادث بثلاثة أشهر. كان مبرمجًا في قسم تطوير واجهات آلة الأحلام، ذلك الاختراع الذي وعد البشرية بالهروب من الواقع. كان يرى يوميًا المتطوعين الذين يدخلون التجارب، وبعضهم لا يعود بالطريقة نفسها. وجوههم تبقى هادئة، لكن عيونهم... كأنها نظرت إلى شيء أكبر من أن تحتمله.

استقال. لم يخبر أحدًا بالسبب الحقيقي. قال إن العمل أصبح مملًا. الحقيقة أنه لم يعد يحتمل أن يساعد الآخرين على الهروب بينما هو نفسه غارق في سجن ذاكرته.

الآن، في هذه الليلة، كان الجوع قد تلاشى منذ ساعات. أطفأ الشاشة. الظلام ملأ الغرفة تدريجيًا، ولم يبقَ سوى ضوء المدينة البعيد يتسلل من النافذة. مدّ يده إلى الدرج الجانبي، وأخرج علبة صغيرة من المعدن الخفيف. بداخلها قرصان مهدئان، من النوع القوي الذي لا يُصرف إلا بوصفة. وضع أحدهما على لسانه، وانتظر.

لكن النوم لم يأتِ هذه المرة. ظل جالسًا، يستمع إلى صوت الأجهزة البعيدة في المبنى، وصوت قلبه هو نفسه وهو يدق ببطء متعب.

في مكان ما داخل رأسه، كانت فكرة قديمة تتحرك من جديد. فكرة خطرة، كان يطردها كلما ظهرت. فكرة تقول إن هناك طريقة للخروج... ليس من الشقة، ولا من المدينة، بل من كل هذا.

أنهض نفسه بصعوبة، وسار إلى النافذة. وضع جبينه على الزجاج البارد. في الأسفل، كانت الشوارع لا تزال مزدحمة بالناس الذين يتحركون كالنمل تحت أضواء النيون. كلهم يبحثون عن شيء. كلهم يهربون بطريقتهم الخاصة.

أنور أغمض عينيه.

وقال لنفسه، بصوت خافت لا يكاد يُسمع:

ـ ربما حان الوقت.

ولم يكن يعرف بعد أن هذه الجملة البسيطة ستكون بداية كل شيء.

الفصل الثاني

لم يكن النوم يأتي بسهولة منذ استقالته. حتى بعد القرص المهدئ، ظل أنور مستلقيًا على ظهره في الظلام، يحدّق في السقف الذي لا يُرى. وفجأة، كما يحدث دائمًا، انفتحت الذاكرة على مصراعيها.

كان ذلك قبل ست سنوات ونصف، في الطابق التاسع عشر من مبنى «نيورا تك» الرئيسي على ضفاف النيل الجديد. الغرفة كانت بيضاء بالكامل، بلا نوافذ، مليئة

بأجهزة مراقبة وأسرّة طبية مبطنة بمواد تمتص الصوت. كان أنور حينها في السابعة والعشرين، لا يزال يؤمن أن التكنولوجيا قادرة على إصلاح ما يفسده الواقع.

عمله كان بسيطًا في الظاهر: برمجة واجهات المستخدم لآلة الأحلام من الجيل الثالث. لكن الحقيقة أنه كان يقضي ساعات طويلة يراقب الشاشات التي تعرض موجات الدماغ للمتطوعين. كان يرى كيف تتحول الألوان على الشاشة من الأزرق الهادئ إلى الأحمر القاني كلما تعمق الشخص في الحلم.

أتذكر التجربة رقم ٤٧ بوضوح مؤلم.

المتطوعة كانت امرأة في الأربعين، فقدت ابنها في حادث مروري قبل عام. دخلت الغرفة بابتسامة متعبة، ووقّعت كل الأوراق دون أن تقرأها. قال لها المشرف الطبي بصوت مهني بارد:

ـ الجهاز آمن تمامًا. ستشعرين بالراحة خلال دقائق.

وضعوا الخوذة على رأسها. ثبتوا الأقطاب الكهربائية بدقة. ضغطوا على الزر.

في البداية سار كل شيء كما يجب. موجات الدماغ استقرت، وتعبير وجهها استرخى. بعد اثنتين وأربعين دقيقة، حدث التغيير. بدأت أصابعها ترتعش. ثم فمها انفتح كأنما تحاول أن تصرخ، لكن الصوت لم يخرج. على الشاشة، انفجرت الألوان فجأة إلى اللون القرمزي نفسه الذي رآه أنور لاحقًا في أحلامه.

استغرق الأمر تسع دقائق كاملة حتى يتمكنوا من فصلها عن الجهاز. عندما خلعت الخوذة، كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، تنظران إلى شيء غير موجود في الغرفة. لم تتكلم لثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، همست لجهاز التسجيل الطبي جملة واحدة فقط:

ـ الباب يفتح في اتجاه واحد...

بعدها نُقلت إلى جناح نفسي خاص، واختفت من السجلات الرسمية.

أنور طلب تقريرًا مفصلاً. قيل له إن الأمر «عرض جانبي نادر» وإن النسخة الجديدة من البرنامج قد عالجت المشكلة. لكنه رأى التقارير الداخلية قبل أن تُحذف. كانت هناك سبع حالات مشابهة في ذلك العام وحده. اثنتان منهما لم تستيقظا أبدًا. أجسادهما ظلت حية، تتنفس، تتغذى عبر الأنابيب، بينما عقولهما... في مكان آخر.

حاول أن يناقش الأمر مع رئيس القسم. الرجل نظر إليه من فوق نظارته الذكية وقال بهدوء:

ـ نحن نبيع الأمل يا أنور. الناس مستعدة أن تدفع أي ثمن مقابل ساعة من السلام. لا تفسد السوق بأسئلتك.

في تلك الليلة عاد إلى شقته، وأغلق على نفسه ثلاثة أيام. عندما خرج، كان قد قرر الاستقالة. لم يذكر الحوادث لأحد. لم يكن هناك دليل ملموس، وكل العقود التي وقعها كانت تلزمه بالصمت.

الآن، بعد مرور السنوات، كان يتذكر تلك العبارة التي همست بها المرأة:

«الباب يفتح في اتجاه واحد...»

جلس في فراشه، وأشعل الضوء الخافت بجانب السرير. مدّ يده إلى الدرج مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يخرج القرص المهدئ. أخرج بدلاً منه بطاقة معدنية صغيرة كان يحتفظ بها منذ أيام الشركة. كانت بطاقة دخول قديمة إلى المختبرات السفلية، منتهية الصلاحية منذ زمن.

قلب البطاقة بين أصابعه. على ظهرها، بخط يده هو نفسه، كانت هناك عبارة قصيرة كتبها في لحظة يأس قديمة:

«إذا وصل الأمر إلى هذا الحد... ابحث عن رامي.»

رامي. الدكتور رامي عبد الله. العالم الذي طُرد من الشركة قبل أنور بعام كامل. الرجل الذي كان يصرخ في الاجتماعات أن الآلة لم تعد مجرد جهاز علاجي، بل أصبحت شيئًا آخر. شيئًا يفتح أبوابًا لا ينبغي فتحها.

أنور أطفأ الضوء، واستلقى مجددًا. هذه المرة لم يحاول أن ينام. ظل يحدّق في الظلام، وهو يكرر الاسم في سره.

رامي...

ربما كان الوقت قد حان حقًا ليبحث عنه.

الفصل الثالث

وجد الحانة في زقاق ضيق خلف محطة المونوريل القديمة في حي «الزمالك السفلي». اللافتة فوق الباب كانت مطفأة منذ سنوات، ولم يبقَ منها سوى هيكل معدني صدئ يحمل اسمًا بالكاد يُقرأ: «الزاوية». الباب نفسه كان من الخشب الثقيل المغطى بطبقات من الطلاء الأسود المتقشر، وفي أعلاه عين إلكترونية حمراء تمسح الوجوه قبل أن تسمح بالدخول.

أنور توقف لحظة أمام الباب. الهواء في الزقاق كان مشبعًا برائحة الرطوبة والزيوت المحترقة. لم يكن المكان يشبه أي حانة قانونية في المدينة. هنا لا توجد كاميرات مراقبة حكومية، ولا بطاقات هوية ذكية، ولا تسجيلات صوتية. هنا يُباع ما لا يُسمح ببيعه في الأماكن النظيفة.

ضغط على الجرس القديم. انتظر. بعد ثوانٍ انفتح الباب بصوت أجش، وظهر رجل ضخم الجثة بوجه مليء بندوب قديمة. نظر إلى أنور نظرة طويلة، ثم أزاح كتفه قليلاً ليسمح له بالمرور.

في الداخل كان الضوء خافتًا ومائلًا إلى الأصفر. الطاولات متباعدة، ومعظمها فارغ. في الزاوية البعيدة، تحت مصباح واحد معلق، جلس رجل نحيل يرتدي معطفًا رماديًا قديمًا. شعره أبيض عند الصدغين، وعيناه محاطتان بهالات داكنة كمن لم ينم جيدًا منذ سنوات. كان يشرب شيئًا داكنًا من كوب زجاجي سميك.

أنور اقترب. الرجل رفع رأسه ببطء، وحدّق فيه لحظة قبل أن يقول بصوت أجش:

ـ ظننت أنك لن تأتي أبدًا.

ـ رامي...

أشار الرجل إلى الكرسي المقابل. جلس أنور. لبرهة لم يتكلم أحد. صوت الموسيقى الخافتة القادمة من مكبرات قديمة كان يغطي الصمت جزئيًا.

قال رامي أخيرًا، وهو يدير الكوب بين أصابعه:

ـ سمعت أنك استقلت منذ زمن. لماذا الآن؟

أنور لم يجب مباشرة. أخرج البطاقة المعدنية القديمة ووضعها على الطاولة. رامي نظر إليها، ثم أصدر صوتًا يشبه الضحكة المرة.

ـ ما زلت تحتفظ بها. غريب.

ـ أحتاج إلى شيء، رامي.

رفع الرجل عينيه. كانت النظرة حادة هذه المرة.

ـ أعرف ما تحتاجه. الجميع يأتون من أجله في النهاية. «البوابة».

نطق الكلمة بهدوء، كأنما يخشى أن يسمعها أحد آخر في الحانة.

أنور ابتلع ريقه.

ـ هل ما زلت...؟

ـ أبيعها؟ نعم. لكن ليس لأي أحد. وليس بلا ثمن.

صمت رامي لحظة، ثم مال إلى الأمام قليلًا. انخفض صوته حتى صار همسًا خشنًا:

ـ استمع إليّ جيدًا، أنور. ما سأقوله لك الآن لن تجده في أي تقرير رسمي، ولن يقوله لك أحد في نيورا تك حتى لو هددته بالموت.

أخذ نفسًا عميقًا.

ـ الآلة الرسمية التي تبيعها الشركة تحكم الحلم. تخلقه، تسيطر عليه، ثم تغلقه. أما «البوابة»... فهي لا تخلق حلمًا. هي تفتح بابًا. بابًا حقيقيًا إلى مكان موجود منذ زمن أطول مما نتخيل. مكان يتغذى على عقول من يدخلونه. بعضهم يعود بعد ساعات، مشوشين، مرعوبين. معظمهم... لا يعود أبدًا. أجسادهم تبقى على الأسرة، تتنفس، تتغذى، لكن عقولهم تُحتجز هناك. إلى الأبد.

أنور شعر ببرودة تسري في عموده الفقري.

ـ ولماذا تبيعها إذن؟

ابتسامة رامي كانت مليئة بالمرارة.

ـ لأن ابنتي مريضة. ولأن العلاج يكلف أكثر مما يملكه رجل مطرود من الشركة. ولأنني جربتها بنفسي مرة واحدة... وعدت. لكنني لم أعد كما كنت.

مد يده تحت الطاولة، وأخرج علبة معدنية صغيرة مستطيلة الشكل، بحجم كتاب متوسط. وضعها أمام أنور برفق، كأنما يضع شيئًا قابلًا للانفجار.

ـ هذه النسخة الأخيرة التي أملكها. مبرمجة لتعمل مرة واحدة فقط. بعد ذلك تحترق الدوائر الداخلية. لا يمكن تتبعها، ولا إعادة استخدامها.

رفع عينيه وحدّق في أنور بجدية تامة.

ـ سأبيعها لك. لكنني سأقول لك الحقيقة كاملة قبل أن تأخذها. الباب يفتح في اتجاه واحد. الزمن هناك مختلف. والقواعد... القواعد ليست من صنع البشر. إذا دخلت، فقد لا تخرج. وإذا خرجت، فقد لا تكون أنت من يخرج.

صمت طويل ملأ المسافة بينهما. الموسيقى البعيدة بدت فجأة أعلى صوتًا.

أنور مد يده ببطء نحو العلبة، ثم توقف.

قال رامي بصوت أخف:

ـ فكر جيدًا. لديك ليلة كاملة. إذا قررت، عد غدًا في الوقت نفسه. أحضر المال كله. نقدًا. لا تحويلات، لا آثار.

ثم أضاف، وهو ينظر إلى وجه أنور كمن يرى شبحًا من الماضي:

ـ وأرجوك... لا تأتِ إذا كنت لا تزال تعتقد أنك تستطيع السيطرة على ما هناك.

أنهى كلماته، وأعاد العلبة إلى مكانها تحت الطاولة. أنهى شرابه دفعة واحدة، ثم وقف.

ـ إلى الغد إذن. أو لا شيء.

سار نحو الباب دون أن ينظر وراءه. ترك أنور وحيدًا على الطاولة، وصوت كلماته لا يزال يرن في أذنيه مثل تحذير بعيد لا يريد أحد أن يسمعه.

الفصل الرابع

لم ينم تلك الليلة.

ظل يمشي في الشقة ذهابًا وإيابًا حتى أرهقت قدماه. أحيانًا كان يقف أمام النافذة يحدّق في المدينة التي لا تنام، وأحيانًا يجلس على حافة السرير يمسك رأسه بيديه. كلمات رامي كانت تدور في رأسه كطاحونة لا تتوقف:

«الباب يفتح في اتجاه واحد...»

«قد لا تكون أنت من يخرج.»

عند الفجر، كان قد اتخذ القرار.

في المساء التالي عاد إلى الحانة في الموعد نفسه. الرجل الضخم عند الباب تعرّف عليه هذه المرة، وأفسح له الطريق دون كلمة. رامي كان جالسًا في الزاوية نفسها، أمامه كوبان هذه المرة. واحد منهما ممتلئ بسائل داكن، والآخر فارغ.

جلس أنور. لم يُلقِ أي تحية.

قال رامي بهدوء:

ـ قررت إذن.

أومأ أنور برأسه. أخرج من داخل معطفه ظرفًا سميكًا ووضعَه على الطاولة. كان يحتوي على كل ما يملكه تقريبًا: مدخرات سنوات، ومبلغًا إضافيًا اقترضه من مصدر لا يريد أن يتذكره. رامي فتح الظرف بأصابع ثابتة، وعدّ النقود بسرعة محترف، ثم أغلقه وأدخله في جيب معطفه الداخلي.

بعد ذلك أخرج العلبة المعدنية ووضعها بينه وبين أنور. إلى جانبها وضع جهازًا لوحيًا صغيرًا أسود اللون، وشاشة رقيقة عرضت عقدًا طويلاً مكتوبًا بخط دقيق.

ـ اقرأ.

بدأ أنور يقرأ. البنود كانت واضحة وقاسية:

«يقرّ الموقّع أدناه بأنه يشتري جهازًا غير مرخّص وغير خاضع لأي ضمانات طبية أو قانونية...»

«يتحمل المسؤولية الكاملة عن أي ضرر جسدي أو نفسي أو عقلي...»

«يُخلي الشركة المصنّعة والبائع من أي مطالبات مستقبلية...»

«يعلم أن احتمال عدم العودة من الحالة الحلمية يتجاوز في بعض الحالات نسبة السبعين في المئة...»

توقّف عند السطر الأخير. رفع عينيه إلى رامي.

ـ سبعون في المئة؟

رامي لم يطرف.

ـ هذا الرقم الرسمي الداخلي القديم. الرقم الحقيقي أعلى.

صمت أنور لحظة، ثم مرّر إصبعه على خانة التوقيع في أسفل الشاشة. ظهر إطار صغير يطلب البصمة البيومترية. وضع إبهامه. انتظرت الشاشة ثانية، ثم ظهرت عبارة خضراء:

«تمّ التسجيل. لا يمكن التراجع.»

رامي أخذ الجهاز اللوحي وأطفأه. دفع العلبة المعدنية نحو أنور برفق.

ـ هذه لك الآن. التعليمات داخلها. الجهاز يعمل مرة واحدة فقط. بعد التشغيل بسبع ساعات تحترق الدوائر الأساسية تلقائيًا. لا تحاول فتحه، ولا توصيله بأي شبكة. ولا... تخبر أحدًا.

وقف أنور، وحمل العلبة. كانت أثقل مما تبدو. شعر ببرودة المعدن حتى من خلال القماش.

قبل أن يغادر، قال رامي بصوت منخفض، كأنه ي□□□ لنفسه أكثر مما يكلم أنور:

ـ إذا رجعت... وكان لا يزال فيك شيء من الذي كنت عليه... فربما نلتقي. أما إذا لم ترجع...

لم يكمل الجملة. اكتفى بهزة رأس صغيرة، ثم عاد إلى كوبه.

خرج أنور إلى الزقاق. الهواء كان أبرد مما تركه. سار بخطوات سريعة نحو أقرب محطة مونوريل، والعلبة تحت ذراعه كأنها جزء من جسده. في القطار جلس في آخر عربة شبه فارغة، ووضع العلبة على ركبتيه، ووضع كفيه فوقها كمن يحمي شيئًا ثمينًا وخطرًا في آن واحد.

عندما وصل إلى الشقة، أغلق الباب خلفه بقفل إلكتروني مضاعف. وضع العلبة على الطاولة الزجاجية في وسط الغرفة. جلس أمامها طويلًا دون أن يفتحها. المدينة خارج النافذة كانت لا تزال تضيء وتتحرك، لكنه شعر فجأة أنها بعيدة جدًا، كأنما ينظر إليها من خلف زجاج سميك لا يمكن كسره.

مدّ يده أخيرًا، وفتح العلبة.

داخلها، على قاعدة من مادة سوداء غير لامعة، كانت الخوذة. أنيقة، رفيعة، بلون رمادي داكن، مع مجموعة من الأقطاب الدقيقة على الجهة الداخلية. إلى جانبها بطاقة صغيرة مطبوعة بخط واضح:

«ضع الخوذة. ثبّت الأقطاب. اضغط على الزر الجانبي لمدة ثلاث ثوانٍ. لا تزلها قبل انتهاء الدورة.»

أنور أغلق العلبة برفق، وحملها إلى غرفة النوم. وضعها على الطاولة بجانب السرير. ثم أطفأ كل الأنوار، وجلس في الظلام.

هذه المرة لم يكن هناك تردد.

كان يعرف ما سيفعله عندما يحلّ الليل التالي.

الفصل الخامس

حلّ الليل ثقيلًا وبطيئًا.

أنور لم يشعل أي ضوء في الشقة. تحرك في الظلام الذي صار يعرفه جيدًا، كأعمى حفظ تفاصيل بيته. غسل وجهه بماء بارد، وغيّر ملابسه إلى قميص خفيف وسروال مريح. ثم وقف أمام السرير، والعلبة المعدنية مفتوحة على الطاولة الجانبية.

أخرج الخوذة بكلتا يديه. كانت أخف مما توقع، لكنها باردة كأنها امتصت برد الغرفة كلها. تأملها لحظة تحت الضوء الخافت القادم من النافذة. الأقطاب الداخلية الدقيقة تلمع مثل أسنان صغيرة فضية. على الجانب الأيمن زر واحد فقط، مستدير وأسود.

جلس على حافة السرير. تنفّس بعمق مرة، ثم مرتين. في المرة الثالثة وضع الخوذة على رأسه.

في البداية لم يحدث شيء. شعر فقط ببرودة المعدن على جبهته وصدغيه، وبضغط خفيف حول رأسه كقبضة يد حذرة. مدّ إصبعه إلى الزر الجانبي، وضغطه ثلاث ثوانٍ كاملة كما قالت التعليمات.

جاء الصوت أولًا.

همس منخفض، يكاد يكون تحت مستوى السمع، يشبه طنينًا كهربائيًا بعيدًا. ثم بدأت الأقطاب تدفئ تدريجيًا. شعور غريب انتشر من جبهته إلى مؤخرة رأسه، كأن أصابعًا دافئة تدلك دماغه من الداخل. أغمض عينيه.

العالم الخارجي تلاشى.

لم يكن هناك انتقال حاد. لا ضوء أبيض، ولا سقوط. فقط إحساس بالانسحاب البطيء، كأن الغرفة كلها تبتعد عنه وهو لا يزال ثابتًا في مكانه. ثم جاء الظلام الحقيقي. ظلام كثيف، مخملي، مختلف عن أي ظلام عرفه من قبل.

وبعد الظلام... الضباب.

بدأ يظهر تدريجيًا، قرمزيًا شاحبًا في البداية، ثم ازداد كثافة ولونًا. كان يتحرك حوله في موجات بطيئة، كأنه يتنفس. وجد نفسه واقفًا على أرض مستوية لا لون لها، تمتد إلى

ما لا نهاية في كل الاتجاهات. وفوقه... أو حوله... ذلك الضباب القرمزي الذي لا يمسه لكنه يملأ كل شيء.

ثم ظهر الممر.

لم يره يقترب. كان هناك فجأة، كأنه انتظره منذ البداية. ممر طويل، ضيق نسبيًا، جدرانه غير مرئية لكنها محسوسة، والضباب يتصاعد على جانبيه في أعمدة رفيعة ترتفع وتختفي. الأرض تحت قدميه كانت تهتز اهتزازًا خفيفًا منتظمًا، كنبض قلب بعيد.

بدأ يسير.

لم يقرر السير. قدماه تحركتا من تلقاء نفسيهما. كلما تقدّم، بدا الممر وكأنه يلتف على نفسه. ينظر خلفه فيرى نفسه مكررًا عشرات المرات في منحنيات سابقة، كصور معلقة في هواء كثيف. الصوت الوحيد كان صوته هو نفسه وهو يتنفس، وصوت خافت يشبه حفيف أوراق جافة رغم أنه لا توجد أوراق.

بعد وقت لا يستطيع تقديره، شعر أن الأرض تهتز أقوى. توقف. الضباب أمامه ازداد كثافة، وتحوّل لونه إلى قرمزي أعمق، يكاد يكون دمويًا. حاول أن يتذكر الشقة، والسرير، والخوذة على رأسه. نجح للحظة قصيرة، ثم ضاعت التفاصيل كرمل ينزلق من بين الأصابع.

واصل السير.

الممر لم يكن ينتهي. كلما ظن أنه وصل إلى نهايته، انفتح أمامه منحنى جديد، أطول، أضيق قليلاً. بدأ يشعر بالتعب، لا في ساقيه، بل في مكان ما خلف عينيه. وتعب آخر أغرب: شعور بأنه يُسحب إلى الأمام بخيط غير مرئي.

ثم، فجأة، انتهى الممر.

وجد نفسه في فضاء أوسع. الضباب هنا أرق، والسماء فوقه — إن كانت سماء — سوداء تمامًا ومثقوبة ببرق قرمزي يرسم مسارات لولبية بطيئة. وأمامه مباشرة، على مسافة غير بعيدة، كانت هناك بوابة.

بوابة عالية، نصفها فقط ظاهر في الشفق الضبابي، مبنية من مادة لا يستطيع تسمية لونها. كانت مغلقة... ثم لم تعد كذلك.

انفتحت بصمت تام.

ومن خلفها انبثق ضوء شاحب، ودرجات سلم تصعد إلى أعلى، تختفي تدريجيًا في الضباب القاني.

أنور وقف على العتبة. قلبه يدق بقوة لم يشعر بها منذ سنوات. مدّ قدمه اليسرى، ووضعها على الدرجة الأولى.

ثم بدأ يصعد.

الفصل السادس

كان السلم يبدو بلا نهاية.

كل درجة يقطعها أنور تختفي خلفه في الضباب، وكأن المكان يبتلع أثره أولًا بأول. الهواء هنا مختلف؛ أثقل، مشبع برائحة معدنية خفيفة تشبه رائحة الدم القديم أو النحاس المحروق. كلما صعد، ازداد الضوء القرمزي الشاحب كثافة، وصار البرق اللولبي في السماء السوداء أقرب وأكثر اضطرابًا.

ثم سمع الصوت.

خطوات سريعة، غير منتظمة، قادمة من أعلى. صوت تنفس متقطع، وأنين مكتوم. توقف أنور في منتصف درجة، وأمال رأسه إلى الأعلى. الضباب كان كثيفًا جدًا حتى إنه لم يرَ شيئًا... إلى أن ظهرت فجأة.

الفتاة كانت تهبط كالبرق.

شعرها الأشقر الطويل يتطاير خلفها رغم سكون الهواء، وملابسها البيضاء ممزقة ومبقعة ببقع داكنة كبيرة. كانت تركض بطريقة يائسة، تكاد تفقد توازنها في كل ثلاث درجات. عيناها واسعتان، محمرّتان، مليئتان برعب لا يُوصف.

اصطدمت به قبل أن يتمكن من التنحي.

ارتطم جسدهما، وفقد الاثنان توازنهما للحظة. أمسك بها غريزيًا، وذراعه يلتف حول خصرها النحيل. كانت خفيفة بشكل مذهل، ومرتعشة بعنف. رائحة الدم فاحت قوية هذه المرة؛ كانت مغطاة به من أول رأسها حتى أخمص قدميها. الدم ليس دمها هي... أو هكذا بدت متأكدة.

دفعت عنه بقوة مفاجئة، وتراجعت خطوتين إلى الوراء على الدرجة الضيقة. ص< objectها جاء مبحوحًا ومكسورًا:

ـ دعني أمر! أرجوك... دعني أمر!

أنور رفع يديه أمامه بحركة تهدئة.

ـ انتظري. أنتِ مصابة. دمك...

هزت رأسها بعنف، والشعر الأشقر يلتصق بوجهها الملطخ.

ـ ليس دمي! دمها... دمها هي!

انهارت فجأة. سقطت على ركبتيها فوق الدرجة، وبدأت تبكي بصوت عالٍ متقطع. وضع كفيه على كتفيها برفق، فارتجت تحت يديه كأنها تتعرض لصدمة كهربائية.

ـ من هي؟ من التي تقصدين؟

رفعت وجهها إليه. الدموع كانت تغسل جزءًا من الدم عن خديها، فتبدو ملامحها أكثر وضوحًا: وجه نحيل، عظام بارزة قليلاً، وعينان لونهما مزيج غريب من الرمادي والأخضر، كأنه لون الضباب نفسه.

ـ أختي... أمسك بها الكائن في القاعة. تناثرت... في كل مكان.

نطق كلمة «الكائن» بصوت خافت مرتعش، كأن مجرد ذكر الاسم قد يستدعيه.

أنور شعر ببرودة تسري في عموده الفقري. تذكر فجأة كلمات رامي، والمرأة في التجربة رقم ٤٧، والعبارة التي همست بها:

«الباب يفتح في اتجاه واحد...»

سألها بصوت هادئ قدر الإمكان:

ـ أين نحن؟ ما هذا المكان؟

نظرت إليه نظرة طويلة، كأنما تزن إن كان يستحق الإجابة. ثم قالت، وهي لا تزال جالسة على الدرجة:

ـ أنت لا تعرف بعد، أليس كذلك؟ أنت جديد.

أومأ برأسه.

ـ هذا ليس حلمًا عاديًا. هذه إحدى بلدان الأحلام. أماكن لها وجود حقيقي... غير محدد المعالم. الأرواح الضائعة تتيه هنا. والأبواب...

توقفت لحظة، وابتلعت ريقها بصعوبة.

ـ الأبواب تفتح في اتجاه واحد فقط. من يدخل من الباب الذي فتحتَه أنت، لا يستطيع الرجوع منه. المفتاح الذي تستخدمه يحترق خلفك. وإذا حاولت العودة بنفس الطريق... لن تجد الطريق أصلًا.

أنور شعر أن الأرض تميل تحته قليلًا.

ـ لكنني... وضعت خوذة. أنا نائم في غرفتي الآن.

ابتسمت ابتسامة حزينة ومريرة في آن واحد.

ـ كنتَ نائمًا. الآن أنت هنا. وهناك فرق كبير بين الاثنين.

نهضت بصعوبة، مستندة إلى جدار الضباب غير المرئي. مدت يدها إليه فجأة، وأمسكت معصمه بقوة مفاجئة.

ـ لا تبقَ واقفًا هنا. الضباب بدأ يتغير. إذا تحول إلى هذا اللون القرمزي الغامق... فهو قادم.

نظرت إلى الأعلى، حيث يختفي السلم في السديم، ثم إلى الأسفل حيث جاء هو.

ـ اسمي سينا. إذا أردت أن تبقى حيًا لفترة أطول... فامشِ معي.

ولم تنتظر رده. استدارت وبدأت تصعد من جديد، بخطوات أسرع هذه المرة، كمن يعرف أن الوقت لم يعد في صالحهما.

أنور وقف لحظة واحدة فقط على الدرجة الدموية. ثم رفع قدمه، وتبعها.

الفصل السابع

تبعها وهو لا يزال يرفض أن يصدق.

السلم استمر في الصعود، والضباب القرمزي صار أسمك خلفهما، كأن المكان يغلق الطريق الذي جاء منه. سينا كانت تسير أمامه بخطوات سريعة واثقة رغم الإرهاق الواضح عليها. شعرها الأشقر الملطخ بالدم يتطاير في الهواء الساكن، وكل بضعة أمتار كانت تلتفت خلفها لتتأكد أنه ما زال يتبعها.

عندما وصلوا إلى نهاية السلم، انفتح أمامهما رواق طويل ذو قباب عالية شبه شفافة. الهواء هنا كان أبرد، والضوء الشاحب يأتي من مصدر غير مرئي. على الجانب الأيسر صف من أبواب منخفضة مستطيلة، كلها مغلقة.

توقفت سينا أمام أول باب، ووضعت كفها عليه للحظة، ثم سحبته بسرعة كأن المعدن حرقها.

ـ لا ندخل من هنا. هذه أبواب قديمة. بعضها يؤدي إلى أماكن أسوأ.

التفتت إليه. وجهها في هذا الضوء بدا أكثر شحوبًا، والدم الجاف على ملابسها يبدو كخريطة داكنة.

ـ أنت ما زلت تفكر في العودة، أليس كذلك؟

أنور لم ينكر. نظر إلى الخلف، حيث كان السلم يختفي تدريجيًا في الضباب.

ـ يجب أن يكون هناك طريقة. الخوذة لا تزال على رأسي في الغرفة. إذا خلعتها...

قاطعتها بصوت حاد هذه المرة:

ـ جرب.

التقطت نبرة التحدي في صوتها. استدار، وبدأ يهرول عائدًا نحو السلم. سينا لم تتبعه. اكتفت بأن تسند ظهرها إلى الجدار وتراقب.

نزل الدرجات بسرعة. الضباب صار أكثف مما كان عليه قبل دقائق. حاول أن يتذكر شكل البوابة التي دخل منها، ولون السماء السوداء، والبرق اللولبي. كلما ركز، تاهت التفاصيل أكثر. بعد ما بدا له عشر دقائق من الهبوط، توقف فجأة.

السلم كان لا يزال ينزل... لكن المشهد أمامه لم يعد نفسه. البوابة اختفت. في مكانها امتد الممر اللانهائي من جديد، بنفس الجدران غير المرئية، ونفس الأعمدة الضبابية

القرمزية. نظر خلفه. السلم الذي صعده مع سينا لم يعد موجودًا. فقط ممر يلتف ويلتف.

شعر بالذعر الحقيقي لأول مرة.

بدأ يركض. ينادي بصوت عالٍ، يضرب الهواء بقبضتيه، يحاول أن يستيقظ بالقوة. تذكر الشقة، والسرير، والعلبة المعدنية، وصوت المدينة خارج النافذة. لا شيء. المكان كان يبتلع ذكرياته واحدة تلو الأخرى، كأنها رمل ناعم ينزلق من بين أصابعه.

سقط على ركبتيه أخيرًا، يتنفس بصعوبة. عندما رفع رأسه، وجد سينا واقفة على مسافة قليلة، تنظر إليه بعينين هادئتين فيهما شيء من الشفقة القديمة.

ـ قلت لك. الباب يفتح في اتجاه واحد. المفتاح الذي استخدمته احترق خلفك. أنت الآن داخل الطبقة، ولست على حافتها.

مدّت يدها إليه. هذه المرة لم يدفعها. أمسك بها، ونهض ببطء. كانت يدها باردة، لكنها ثابتة.

ساروا معًا في صمت عبر الرواق. بعد قليل قالت بصوت أخفض:

ـ معظم من يصلون إلى هنا يقضون أيامًا يحاولون العودة. بعضهم يجن. بعضهم يستسلم مبكرًا وينضم إلى الراكعين. أنت... تبدو مختلفًا قليلاً. ربما لأنك جئت وأنت تعرف شيئًا عن الآلة.

توقف فجأة، وأمسك ذراعها.

ـ الكائن الذي ذكرتِه. ماذا يكون؟

وجهها تيبس. نظرت إلى الضباب المحيط بهما، الذي بدأ يتغير لونه ببطء من القرمزي الشاحب إلى درجة أغمق، أقرب إلى لون الدم القديم.

ـ هو الحارس. أو الإله. أو المرض. لا أحد يعرف اسمه الحقيقي. يتغذى على الجدد. كلما دخل حالم جديد، شعر به. وكلما طال بقاؤك دون أن... تقدم له شيئًا، اقترب أكثر.

رفعت عينيها إلى السقف الضبابي العالي.

ـ وهو الآن يعرف أننا هنا. الاثنان.

في اللحظة نفسها تقريبًا، شعر أنور بالشيء.

لم يكن صوتًا، ولا رائحة. كان ضغطًا خفيفًا على مؤخرة رأسه، كأصابع غير مرئية تختبر صلابة الجمجمة. ثم نبضة واحدة قوية، قرمزية، مرت عبر الضباب كله وجعلته يتموج كسطح ماء مضطرب.

سينا أمسكت يده بقوة هذه المرة، وشدّته إلى الأمام.

ـ امشِ. لا تتوقف. ولا تنظر خلفك كثيرًا.

بدأ السير أسرع. خلفهما، في أعماق الضباب الذي كان ممرًا في السابق، شيء ما كان يتحرك ببطء، ويتنفس، وينتظر.

وأنور، للمرة الأولى منذ وضع الخوذة، فهم بوضوح تام أنه لم يعد يحلم.

هو هنا.

إلى أجل غير مسمى.

الفصل الثامن

خرجوا من الرواق عبر قوس ثلاثي ضخم مغطى بنقوش بارزة لا يستطيع أنور أن يركز عليها طويلًا. كلما حاول تمييز شكلها، تاهت خطوطها كأنها تتحرك تحت بصره. خلف القوس امتدت أرض واسعة مفتوحة، مختلفة تمامًا عن كل ما رآه حتى الآن.

السهول البرونزية.

العشب كان قصيرًا وناعمًا كالفراء، لونه مزيج غريب من البني المحمر والنحاسي، يلمع تحت الضوء الشاحب كأنه مبلل بندى معدني. السماء فوقهم لم تعد سوداء بالكامل؛ صارت رمادية مائلة إلى البنفسجي، مثقلة بغيوم منخفضة تتحرك ببطء عكس أي منطق هوائي. وفي الأفق البعيد، بدت أشجار غريبة ذات أوراق تشبه الريش الأخضر الداكن، وخلفها لمع خافت كماء.

سينا سارت أمامه بضع خطوات، ثم توقفت ونظرت إلى الأرض تحت قدميها.

ـ انتبه إلى العشب.

أنور نظر. في البداية لم يلاحظ شيئًا. ثم رآها: موجات طويلة ومنتظمة تنطلق من المكان الذي يقفان فيه، وتتجه إلى كل الاتجاهات كدوائر في بركة ساكنة. كلما تحركا، تولدت موجات جديدة. كأن الأرض كلها كانت تُسجل وجودهما وترسل الإشارة إلى مكان ما بعيد.

ـ هل هذا... واعٍ؟

ـ بطريقة ما. كل شيء هنا يُراقب. العشب، الضباب، حتى الهواء. لا شيء محايد.

سارا معًا في صمت فترة طويلة. العشب يلتصق بكعب حذاء سينا العاري في كل خطوة، ثم ينزلق ببطء كألسنة صغيرة مترددة. أنور شعر بشيء مشابه على حذاءه، رغم أنه لم يخلع حذاءه الفضائي الذي جاء به من الحلم. تساءل للحظة إن كان الحذاء حقيقيًا أم مجرد امتداد لما كان يرتديه عندما وضع الخوذة.

بعد مسافة غير محددة، توقفت سينا فجأة ومدت يدها تمنعه من التقدم.

ـ انظر هناك.

في الأفق، على بعد يبدو كيلومترات، كانت هناك كتلة ضبابية أعلى وأكثف من المحيط. لونها كان أغمق، وفي وسطها وميض خافت منتظم كنبض.

ـ المعبد؟

هزت رأسها.

ـ ليس بعد. هذه مجرد إحدى المحطات. الراكعون يتجمعون هناك أحيانًا. لا نريد أن نلتقي بهم الآن.

غيرت اتجاهها، وانحرفت نحو اليسار حيث بدت الأشجار أقرب. أنور تبعها. الموجات في العشب استمرت تتبعهما، لكنها صارت أوسع وأبطأ، كأنها متعبة أو... منتظرة.

بعد قليل قال، وهو يراقب ظهرها النحيل وهي تسير أمامه:

ـ كم مضى عليك هنا؟

سينا لم تلتفت.

ـ لا أعرف بالضبط. الزمن لا يُقاس بالطريقة نفسها. في البداية كنت أعد الأيام lassentoً على حجارة. بعد فترة توقفت. ربما اثنتا عشرة سنة من زمنكم. أو أكثر. أو أقل.

ـ وكيف احتملتِ كل هذا الوقت؟

ضحكت ضحكة قصيرة جافة.

ـ لم أحتمل. تعلمت فقط ألا أموت بسرعة. هناك فرق.

الصمت عاد يفرض نفسه. الرياح — إن كانت هناك رياح — لم تكن تهب من اتجاه واحد. كانت تأتي من كل الجهات دفعة واحدة، ثم تتوقف فجأة، تاركة الهواء ثقيلًا وساكنًا. أنور شعر مرات عدة أن شيئًا يراقبه من بين ريش الأشجار البعيدة، لكنه كلما التفت لم يجد سوى الضباب الخفيف الذي بدأ يتسلل من جديد بين العشب البرونزي.

بعد وقت بدا أطول مما يجب، وصلوا إلى حافة الأشجار. الأوراق الريشية كانت تُصدر صوتًا خافتًا يشبه الهمس عندما تلامسها، رغم غياب أي نسيم حقيقي. خلفها لمعت البحيرة التي رآها من بعيد. الماء كان ساكنًا تمامًا، ولونه رمادي مائل إلى الزرقة، يعكس السماء بطريقة خاطئة قليلًا، كأنها مرآة مشروخة.

سينا جلست على صخرة منخفضة عند الحافة، وأراحت مرفقيها على ركبتيها. بدا الإرهاق عليها أوضح الآن. الدم الجاف على ملابسها بدأ يتقشر في بعض المواضع.

أنور وقف إلى جانبها، ينظر إلى الماء.

ـ إلى أين نذهب من هنا؟

رفعت رأسها ونظرت إليه للمرة الأولى منذ فترة طويلة. عيناها في هذا الضوء بدتا أكثر اخضرارًا، وأعمق.

ـ إلى مكان آمن نسبيًا. إن وُجد شيء اسمه الأمان هنا. وبعد ذلك... نقرر إن كنا سنختبئ، أم نحاول شيئًا أخطر.

ابتسمت ابتسامة باهتة.

ـ أنت أول شخص جديد منذ وقت طويل لا ينهار في الساعات الأولى. هذا إما جيد... أو سيئ جدًا.

ثم نهضت، ومسحت يديها في ثوبها الملطخ، وأشارت إلى مسار ضيق بين الأشجار.

ـ تعال. قبل أن تتغير الموجات مجددًا.

وسارا معًا نحو الظل الريشي، بينما السهل البرونزي خلفهما يستمر في إرسال موجاته الهادئة إلى الأفق البعيد، كأنه يُبلغ شيئًا ما أنهما ما زالا يتحركان.

الفصل التاسع

المسار بين الأشجار الريشية كان أضيق مما بدا من بعيد.

الأوراق تلامس وجه أنور وكتفيه في كل خطوة، تاركة على جلده إحساسًا باردًا يشبه لمس معدن رقيق. الضوء هنا أضعف، والظلال أطول وأكثر اضطرابًا. سينا كانت تسير أمامه بخطوات حذرة، تتوقف كل بضعة أمتار لتستمع إلى شيء لا يسمعه هو.

بعد مسافة غير قصيرة، انفرجت الأشجار فجأة على مساحة مفتوحة مستديرة. في وسطها وقفت هياكل غريبة.

في البداية ظنها أنور بقايا مباني. ثم اقترب ورأى التفاصيل. كانت هناك كراسي حجرية متآكلة، بعضها مقلوب، وطاولة طويلة مكسورة إلى نصفين. وعلى الأرض تناثرت أشياء لا تنتمي إلى هذا العالم: ساعة يد قديمة من القرن الحادي والعشرين، كتاب مفتوح الصفحات وقد اصفرت أوراقه، دمية قماش صغيرة فقدت إحدى عينيها، وقطعة قماش مطرزة بكلمات بلغة لا يعرفها.

سينا وقفت في حافة الدائرة ولم تدخل مباشرة.

ـ بقايا، قالت بصوت خافت. أحلام قديمة تجمدت هنا عندما مات أصحابها أو نسوها تمامًا.

أنور انحنى □□ الساعة. زجاجها كان مكسورًا، والعقارب متوقفة عند الثالثة والنصف. بمجرد أن لمسها، جاءت صورة سريعة في رأسه: رجل يجلس على كرسي في غرفة مظلمة، يحدّق في الساعة نفسها وهو يبكي. الصورة اختفت بنفس سرعة ظهورها، تاركة طعمًا معدنيًا في فمه.

ـ هل رأيتَ شيئًا؟ سألته سينا وهي ترقبه.

أومأ برأسه.

ـ ذكريات. أو بقايا ذكريات. كن حذرًا. بعض هذه الأشياء لا تزال... جائعة.

سار ببطء بين الأغراض المتناثرة. توقف أمام الكتاب المفتوح. الصفحات كانت مليئة بكتابة يدوية غير مقروءة، وفي الهامش رسومات صغيرة متكررة لباب مقوس. عندما حاول أن يقلب صفحة، تشقق الورق وتحوّل إلى غبار ناعم طار في الهواء ثم اختفى.

في الجهة المقابلة من الدائرة كان هناك شيء أكبر: بوابة حجرية نصف منهارة، مشابهة للبوابة التي دخل منها، لكنها أصغر وأقدم. حولها تناثرت عظام بشرية بيضاء ناصعة، مرتبة في دوائر منتظمة كأنها جزء من طقس.

سينا اقتربت منه هذه المرة، ووقفت إلى جانبه.

ـ هذا أحد الأماكن التي يحاول فيها الراكعون استدعاء الكائن. أحيانًا ينجحون. أحيانًا يفشلون فيصبحون هم أنفسهم جزءًا من البقايا.

نظر أنور إلى العظام، ثم إلى البوابة المنهارة.

ـ هل سبق أن رأيتِ أحدًا يخرج من هنا؟

ـ يخرج؟ لا. بعضهم يختفي. بعضهم يتحول. لكن الخروج الحقيقي... نادر جدًا. وأنا لم أره بعيني.

جلسا على صخرة منخفضة بعيدًا قليلاً عن الدائرة. الإرهاق كان يضغط على كتفي أنور الآن، ليس إرهاق الجسد فقط، بل إرهاق العقل الذي يحاول استيعاب كل هذا. سينا كانت تنظر إلى الأغراض المتناثرة بنظرة بعيدة، كأنها ترى أشياء أخرى فوقها.

بعد صمت طويل قال:

ـ أختك... هل ماتت هنا؟

لم تجب مباشرة. أخذت شهيقًا بطيئًا.

ـ ليس تمامًا. الكائن لا يقتل بالطريقة التي نفهمها. يأخذ... الجوهر. ما يبقى خلفه أحيانًا يكون جسدًا فارغًا يتجول فترة ثم يتفتت. وأحيانًا لا يبقى شيء. رأيتها تُسحب إلى داخل الضباب القرمزي في القاعة الكبرى. سمعت صوتها وهي تنادي اسمي. ثم لم يعد هناك صوت.

صوتها كان هادئًا بشكل مخيف، كأنها روت القصة مرات كثيرة لنفسها حتى فقدت القدرة على البكاء عليها.

أنور لم يعرف ماذا يقول. مد يده دون تفكير ولمس كتفها لحظة قصيرة. لم تبتعد، لكنها لم تنظر إليه أيضًا.

بعد قليل نهضت.

ـ يجب ألا نبقى هنا طويلًا. الأماكن التي تحمل بقايا كثيرة تجذب الانتباه أسرع. والكائن... أو ما يخدمه... قد يشعر بالحركة.

أشارت إلى مسار آخر يخرج من الدائرة بين الأشجار، أضيق وأظلم من الذي جاءا منه.

ـ هناك مكان أعرفه أبعد قليلاً. أكثر هدوءًا. نستطيع أن نستريح فيه بعض الوقت... إن كان للراحة معنى هنا.

قبل أن يتحرك، التفت أنور مرة أخيرة إلى الدائرة. الساعة المكسورة، والكتاب الذي صار غبارًا، والعظام البيضاء حول البوابة. كلها بدت فجأة كتحذير صامت.

ثم تبع سينا إلى الظل، تاركًا خلفه موجات العشب البرونزي التي استمرت تتحرك ببطء نحو الأفق، كأنها لا تزال ترسل إشاراتها إلى من ينتظر.

الفصل العاشر

كان المكان الذي قادته إليه سينا أكثر انخفاضًا من السهل البرونزي. منخفض صخري ضحل تحيط به صخور داكنة حادة الحواف، وفي وسطه بقايا نار قديمة متفحمة. جلسا

هناك فترة طويلة دون كلام. أنور حاول أن يرتب أفكاره، لكن كل فكرة كانت تنتهي إلى السؤال نفسه: كيف يخرج من هنا؟

سينا كانت أول من تحرك. رفعت رأسها فجأة، كحيوان بري شمّ رائحة خطر.

ـ اخفض صوتك. ولا تتحرك.

أشارت بذقنها نحو حافة المنخفض الغربية. أنور زحف ببطء حتى صار بجانبها، وتطلع من بين الصخور.

على بعد مسافة ليست بعيدة، في أرض منبسطة أفتح لونًا، كان هناك تجمع.

حوالي عشرين أو خمسة وعشرين شخصًا، رجالًا ونساء، جميعهم راكعون في صفوف منتظمة أمام تمثال هائل. التمثال منحوت من مادة سوداء لامعة، يشبه مخلوقًا هجينًا: جسد بشري ضخم، رأس يشبه رأس حيوان مفترس غير محدد، وأذرع طويلة تنتهي بأصابع حادة. حول قاعدة التمثال كانت هناك قنوات محفورة في الأرض، يسري فيها سائل داكن بطيء الحركة.

أحدهم، رجل أصلع يرتدي رداءً أسود مخططًا بخطوط حمراء طولية، وقف في المقدمة. كان يرفع يديه إلى الأعلى ويتمتم بكلمات لا تصل إلى أنور بوضوح. الباقون يرددون خلفه بصوت واحد منخفض، كهمهمة جماعية.

سينا همست دون أن تدير رأسها:

ـ الراكعون. هؤلاء الذين استسلموا. يخدمون الكائن مقابل أن يؤجل التهامهم. بعضهم يفعل ذلك منذ سنوات طويلة... بحسب زمن هذا المكان.

الرجل الأصلع توقف عن التمتمة. التفت إلى أحد الراكعين في الصف الأمامي، امرأة نحيلة ذات شعر أسود قصير. أشار إليها. نهضت ببطء، وخطت نحو التمثال بخطوات مرتجفة. عندما وصلت إلى القاعدة، ركعت مجددًا ومدت رقبتها إلى الأمام.

من بين الرداء الأسود أخرج الرجل خنجرًا طويلاً ذا نصل معقوف. رفعه بكلتا يديه فوق رأسه. الضوء الشاحب انعكس على المعدن لحظة قصيرة.

أنور شعر بجسده يتصلب. مدّ يده غريزيًا نحو المكان الذي يفترض أن يكون فيه مسدسه الليزري... ثم تذكر أنه في حلم، وأن السلاح الذي يحمله ربما لا يكون حقيقيًا بالكامل.

سينا أمسكت ذراعه بقوة وأشاحت بوجهها.

ـ لا تنظر. لن يفيدها أحد.

لكنه نظر.

الخنجر هبط ببطء مدروس. المرأة لم تصرخ. فقط ارتعش جسدها مرة واحدة عنيفة، ثم استرخى. السائل الداكن تدفّق من عنقها إلى القنوات المحفورة، وسار ببطء نحو قاعدة التمثال. التمثال نفسه بدا وكأنه يتنفس. الصدر الحجري ارتفع وانخفض مرة واحدة ثقيلة، والعينان الفارغتان لمعَتا للحظة بلون قرمزي خافت.

الراكعون سجدوا جميعًا حتى لامست جباههم الأرض. الرجل الأصلع رفع يديه مجددًا، وبدأ يتمتم شيئًا آخر. هذه المرة بدا الصوت أقرب إلى الشكر.

سينا سحبت أنور إلى الخلف برفق لكن بحزم.

ـ يكفي. إذا بقينا أكثر قد يشعرون بنا. وبعضهم لم يعد بشريًا تمامًا. يستطيعون الشم من مسافات بعيدة.

تراجعَا زحفًا حتى عادا إلى قاع المنخفض. جلسا وظهورهما إلى الصخرة. أنور كان يتنفس بسرعة. صورة الخنجر وهو يهبط ظلت تتكرر أمام عينيه.

ـ لماذا يفعلون هذا؟ سأل بصوت مبحوح. لماذا يقدمون أنفسهم؟

سينا نظرت إلى يديها الملطختين بالدم الجاف.

ـ لأن البديل أسوأ. الكائن إذا جاء بنفسه لا يترك شيئًا. أما إذا قدّموا له قربانًا بانتظام، فإنه يكتفي... لفترة. بعضهم يؤمن أنه سيمنحهم قوة أو خلودًا داخل هذا العالم.
معظمهم فقط خائفون من أن يكونوا التاليين بدون طقس.

صمتت لحظة، ثم أضافت بصوت أخف:

ـ الرجل الأصلع... رأيته من قبل. هو أحد أقدمهم. يُسمى بينهم «الحافظ». هو من يدير الطقوس في هذه المنطقة.

أنور أسند رأسه إلى الصخرة وأغلق عينيه. لأول مرة منذ دخل هذا المكان، شعر برغبة حقيقية في أن يصرخ. أو أن يضرب شيئًا. أو أن يعود إلى الشقة الرمادية الهادئة حيث لا يوجد سوى صمته وذكرياته.

لكن الشقة كانت الآن أبعد من أي نجم.

فتح عينيه. سينا كانت تنظر إليه بثبات.

ـ ما زلت تريد الخروج، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حتى بعد ما رأيت؟

ـ خاصة بعد ما رأيت.

هيأَت شيئًا يشبه الابتسامة، لكنه لم يصل إلى عينيها.

ـ إذن سنحتاج إلى خطة أفضل من الاختباء. والخطط الجيدة هنا... نادرًا ما تنتهي كما يتوقع أصحابها.

في الأفق البعيد، فوق المكان الذي كان فيه التمثال، ارتفع عمود رفيع من الضباب القرمزي نحو السماء الرمادية، كأنه إشارة أو دعوة.

وسينا وأنور جلسا في صمت المنخفض الصخري، يستمعان إلى الهمهمة البعيدة وهي تتلاشى تدريجيًا، تاركة وراءها فقط صوت الرياح التي لا تهب من أي جهة.

الفصل الحادي عشر

بعد أن تأكدت سينا أن الراكعين قد انصرفوا، قادته عبر مسار ملتوٍ بين الصخور حتى وصلا إلى تجويف صغير في سفح تل منخفض. المكان كان محميًا من ثلاث جهات، والضباب هنا أرق، يكاد يكون شفافًا. جلسا متقابلين على أرضية ناعمة من تراب رمادي ناعم.

لفترة طويلة لم يتكلم أحد. أنور كان لا يزال يرى في كل مرة يغلق فيها عينيه لحظة هبوط الخنجر. سينا تبدو منهكة أكثر من أي وقت مضى؛ كانت تسند ظهرها إلى الصخرة وتحدّق في الفراغ أمامها.

أخيرًا كسر الصمت بصوت منخفض:

ـ أختك... ما كان اسمها؟

رفعت سينا رأسها ببطء. نظرت إليه لحظة طويلة كأنها تقرر إن كانت ستجيب.

ـ ليلى.

قالت الاسم ببساطة، كأنما تضعه على الأرض بينه وبينها.

ـ كانت أصغر مني بثلاث سنوات. دخلنا معًا. كانت فكرتي. كنت مهووسة بآثار مصر القديمة، ووجدت نسخة قديمة من كتاب الموتى في مكتبة جامعية نادرة. ظننت أن الرموز قد تعني شيئًا إذا دخلت الحلم وأنا أفكر فيها. كانت ليلى تضحك مني، لكنها وافقت أن تجرب معي. قالت: «إذا جننت، سأكون معك على الأقل».

ابتسامة باهتة مرت على شفتيها ثم اختفت.

ـ في البداية كان الأمر يشبه مغامرة. ثم تغير كل شيء بسرعة. الكائن شعر بنا أسرع مما توقعت. أخذها أمامي في القاعة الكبرى. لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى أن أركض.

أنور صمت قليلاً. ثم قال، وهو ينظر إلى يديه:

ـ أختي كانت تُدعى نورا. خمس سنوات أصغر مني. ماتت في حادث قطار مغناطيسي. كنت أنا من ودّعها عند الباب ذلك الصباح. قالت لي ألا أنسى أن آكل شيئًا غير الوجبات الجاهزة. بعد ساعتين جاءني الاتصال.

رفع عينيه إلى سينا.

ـ منذ ذلك اليوم وأنا أعيش كأنني أنتبه لشيء ناقص في الغرفة. حتى عندما أكون وحدي تمامًا، أشعر أن هناك كرسيًا فارغًا كان يجب أن يكون مشغولاً.

سينا لم تقاطع. اكتفت بأن تنظر إليه بانتباه هادئ. بعد قليل قالت:

ـ لهذا اشتريت الآلة؟ للهروب من الكرسي الفارغ؟

ـ جزئيًا. والجزء الآخر... لأنني كنت أعمل على تطويرها. رأيت ما تفعله بالناس، ورأيت التقارير التي تُخفى. ظننت أنني إذا دخلت بنفسي، ربما أفهم كيف تُغلق الأبواب من الداخل.

ضحكت سينا ضحكة قصيرة خالية من المرح.

ـ لم يغلق أحد الباب من الداخل بعد. على الأقل ليس بالطريقة التي يتخيلها الناس.

الصمت عاد، لكنه كان مختلفًا هذه المرة. أقل حدة، وأكثر امتلاءً. أنور شعر أن المسافة بينهما ضاقت قليلاً، لا بالمتر، بل بشيء آخر.

بعد لحظة مدّت سينا يدها ولمست الدم الجاف على كمها.

ـ ليلى كانت تحب اللون الأزرق. كانت تضع دائمًا وشاحًا أزرق حول عنقها حتى في الصيف. عندما أخذها الكائن، كان الوشاح لا يزال حول رقبتها. رأيته يطير في الهواء لحظة قبل أن يبتلعها الضباب.

صوتها ارتعش للمرة الأولى منذ بدأت الحكاية. أنور لم يقل شيئًا. فقط مدّ يده ووضعها فوق يدها للحظة قصيرة. لم تسحب يدها. تركتهما معًا على التراب الرمادي حتى بردت أصابعهما معًا.

عندما سحبت يدها أخيرًا، قالت بهدوء:

ـ لا تظن أنني أروي لك هذا لأطلب منك أن تنقذني أو تنتقم لي. أنا فقط... لم أعد أحتمل أن أحمل الاسم وحدي. ليلى. نورا. أسماء تبقى عالقة في الحلق إذا لم تُقل أحيانًا.

أنور أومأ برأسه.

ـ أنا أيضًا لم أقل اسمها لأحد منذ سنوات. حتى لنفسي نادرًا.

نظر كل منهما إلى الآخر في الضوء الشاحب. لم يكن هناك وعد، ولا اعتراف كبير. فقط اعتراف صغير مشترك بالخسارة، وشعور غريب بأن الحمل صار أخف قليلًا لأن شخصًا آخر يعرف وزنه.

في الخارج، بعيدًا فوق السهل، تحركت موجة جديدة في العشب البرونزي واتجهت نحو الأفق. كأن المكان نفسه كان يستمع إليهما، ويسجّل ما قيل.

سينا نهضت أخيرًا ومسحت يديها.

ـ استرح قليلًا إن استطعت. بعد هذا لن يكون هناك الكثير من الوقت للحديث الهادئ.

جلس أنور مستندًا إلى الصخرة، وأغلق عينيه. لأول مرة منذ دخل هذا العالم، لم يحاول أن يتذكر الشقة أو السرير أو الخوذة. بدلاً من ذلك، ظل اسمان يدوران في رأسه بهدوء:

نورا.

وليلى.

الفصل الثاني عشر

بعد أن استراحا في التجويف الصخري وقتًا بدا قصيرًا جدًا، اقترح أنور الفكرة.

ـ ربما إذا عدنا إلى البوابة التي دخلتُ منها، وحاولنا فتحها من الجهة الأخرى... أو كسرها.

سينا نظرت إليه نظرة طويلة مليئة بالشك، لكنها لم ترفض فورًا. بعد صمت قالت:

ـ جربنا ذلك أنا وليلى في الأيام الأولى. البوابة لا تُفتح من الداخل. لكنها تتغير. أحيانًا تظهر في مكان، ثم تختفي وتظهر في مكان آخر. ربما حظك أفضل.

قررا المحاولة قبل أن يفقد أنور ما تبقى من إصراره.

سارا عبر السهل البرونزي في اتجاه معاكس للذي جاءا منه. العشب كان لا يزال يرسل موجاته، لكنها هذه المرة بدت أسرع وأكثر اضطرابًا. السماء فوقهما ازدادت قتامة، والغيوم البنفسجية صارت أقرب إلى الأرض.

بعد مسيرة طويلة وجدا أثرًا لما بدا بوابة. قوس حجري نصف مدفون في العشب، مغطى بنقوش مشابهة لتلك التي رآها أنور في البداية. الضباب حولها كان أسمك، ولونه أميل إلى القرمزي الداكن.

أنور اقترب أولاً. وضع كفيه على سطح الحجر البارد. كان يتوقع مقاومة أو حرارة أو أي شعور. لم يحدث شيء. دفع. ثم دفع بقوة أكبر. الحجر لم يتزحزح ميليمترًا واحدًا.

سينا وقفت على مسافة قليلة تراقب. فجأة وضعَت يدها على جبهتها وتمايلت.

ـ سينا؟

لم تجب. كانت تحدّق في البوابة بعينين واسعتين، لكن نظرتها لم تكن مركزة عليه هو ولا على الحجر. شيء آخر كان يمر أمام عينيها. شفتاها تحركتا بصمت، كأنهما ترددان كلمات لا صوت لها.

أنور ترك البوابة وأسرع نحوها. أمسك كتفيها.

ـ سينا! انظرِي إليّ.

ارتعش جسدها تحت يديه، ثم رفعت رأسها ببطء. عيناها كانتا لحظة قصيرة بلون مختلف؛ أعمق، وأكثر احمرارًا عند الحواف. ثم رمشَت عدة مرات، وعاد اللون المعتاد.

ـ أنا... بخير، قالت بصوت مبحوح. فقط... سمعت صوتها.

ـ صوت من؟

ـ ليلى. كانت تناديني من خلف البوابة. قالت إن الطريق مفتوح من الجهة الأخرى إذا دفعتُ بقوة كافية.

أنور شعر ببرودة تسري في ظهره.

ـ ليلى ماتت.

ـ أعرف، أجابت بسرعة، وفي صوتها دفاع غريب. أعرف. لكنه بدا حقيقيًا جدًا.

نظرَا معًا إلى البوابة. الضباب حولها كان يتموج الآن بوضوح، كأنه يستجيب لشيء. أنور عاد إليها وحاول مرة أخرى، هذه المرة بكل قوته. ركل الحجر، ضربَه بقبضة يده حتى أدمت أصابعه. لا شيء. البوابة ظلت مغلقة وصلبة كأنها جزء من الأرض نفسها.

عندما استدار، وجد سينا قد اقتربت أكثر. كانت تمد يدها نحو النقوش على القوس، وأصابعها ترتعش.

ـ لا تلمسيها، قال وهو يمسك معصمها.

سحبت يدها كمن أُفيق من غفوة. نظرت إلى أصابعها ثم إليه، وفي عينيها خوف حقيقي هذه المرة.

ـ هو يحاول، همست. يستخدم ذكراها. هذا أول مرة منذ وقت طويل يفعل ذلك بهذه القوة.

في اللحظة نفسها تقريبًا، ارتفع من بعيد صوت همهمة جماعية خافتة، مشابهة لما سمعاه عند الراكعين، لكنها أبعد وأكثر انتشارًا. العشب البرونزي من حولهما بدأ يتحرك في موجات أسرع، كلها تتجه هذه المرة نحو البوابة التي فشلا في فتحها.

سينا أمسكت يد أنور بقوة.

ـ نحتاج أن نبتعد. الآن.

لم يجادل. ركضا معًا بعيدًا عن القوس الحجري، عبر السهل الذي صار يبدو فجأة أضيق وأكثر عدائية. خلفهما، الضباب القرمزي حول البوابة ازداد كثافة وارتفاعًا، كعمود دخان بطيء يعلن عن شيء ما.

بعد أن قطعا مسافة كافية وتواريا بين الأشجار الريشية من جديد، توقفا ليلتقطا أنفاسهما. سينا كانت تنحني، يداها على ركبتيها، تتنفس بصعوبة.

ـ هل ما زلت تسمعينها؟ سألها أنور.

هزت رأسها.

ـ لا. اختفى الصوت. لكن الشعور... لا يزال هنا، وضعت يدها على صدرها. كأنه ترك شيئًا داخلي.

أنور نظر إلى أصابعه المدماة، ثم إلى الاتجاه الذي جاءا منه. البوابة لم تعد مرئية، لكن الرسالة كانت واضحة.

الهروب المباشر لم يعد خيارًا.

وشيئًا فشيئًا، بدأ الكائن يمد أصابعه نحو العقل الوحيد الذي كان لا يزال يقاوم بجانبه.

الفصل الثالث عشر

(العالم الحقيقي)

كان الهاتف يرن للمرة السابعة والأربعين في ذلك اليوم.

هدى وقفت أمام باب شقة أنور في الطابق السابع والأربعين، تضغط على زر الجرس بإصرار متزايد. لم يجب أحد. الشاشة الصغيرة بجانب الباب كانت تعرض الرسالة نفسها منذ ساعات: «المقيم غير متاح».

كانت قد اتصلت به أول مرة صباح أمس. ثم بعد الظهر. ثم في المساء. لا رد. رسائلها النصية بقيت على حالة «تم الإرسال» دون أن تتحول إلى «تمت القراءة». في اليوم الثاني بدأت القلق يتسلل إليها بجدية.

كانت هدى زميلته القديمة في «نيورا تك»، وإحدى القلائل الذين حافظوا على تواصل معه بعد استقالته. كانت تعرف عن أخته، وتعرف كيف ينغلق على نفسه أحيانًا لأسابيع. لكن هذه المرة بدا الأمر مختلفًا. في آخر مكالمة بينهما قبل ثلاثة أيام، كان صوته غريبًا؛ هادئًا أكثر من اللازم، وكأنه اتخذ قرارًا كبيرًا ولم يعد يريد مناقشته.

جربت الرقم السري القديم الذي أعطاها إياه مرة في حال الطوارئ. الباب انفتح بصوت طقطقة إلكترونية خافتة.

الشقة كانت هادئة بشكل مخيف. لا موسيقى، لا صوت شاشة، لا حتى صوت جهاز التكييف. الهواء راكد وثقيل. نادت باسمه مرة، ثم مرتين. لا إجابة.

وجدته في غرفة النوم.

كان مستلقيًا على ظهره فوق السرير، مرتديًا ملابس بسيطة، والخوذة الرمادية الداكنة مثبتة على رأسه. الأقطاب الدقيقة غائصة في جبهته وصدغيه. عيناه مغلقتان، ووجهه هادئ تمامًا كوجه نائم عميق. على الطاولة الجانبية كانت العلبة المعدنية مفتوحة، وإلى جانبها البطاقة الصغيرة التي تحمل التعليمات.

اقتربت منه بخطوات بطيئة. لمست كتفه. لم يتحرك. رفعت إحدى يديه؛ كانت دافئة، لكنها سقطت بثقل عندما أفلتها. وضعت أذنيها قرب فمه. كان يتنفس بانتظام، بطيء وعميق.

ـ أنور...؟

لا رد.

حاولت نزع الخوذة. في اللحظة التي لمست فيها حافتها، شعرت بتيار خفيف يمر في أصابعها، كصدمة كهربائية ضعيفة. الخوذة لم تتحرك ميليمترًا. بدت ملتصقة برأسه كأنها جزء منه.

أخرجت هاتفها بيدين مرتعشتين واتصلت بالطوارئ الطبية أولاً، ثم برقم آخر كانت تحتفظ به منذ أيام الشركة: خط داخلي قديم لقسم المتابعة النفسية المرتبط بتجارب آلة الأحلام.

بينما تنتظر، جلست على حافة السرير ونظرت إلى وجهه. كان يبدو أصغر سنًا في هذا النوم العميق، وأبعد مما كان عليه في أي وقت مضى.

خارج النافذة، كانت مدينة نيو القاهرة تواصل صخبها المعتاد تحت السماء الرمادية. لا أحد فيها يعرف أن رجلاً في الطابق السابع والأربعين قد أغلق وراءه بابًا لا يُفتح من الجهتين، وأن جسده فقط هو ما تبقى على هذا الجانب.

عندما وصل فريق الإسعاف، كانت هدى لا تزال تمسك يد أنور، كأنها تأمل أن يشعر بالضغط فيعود.

لكنه لم يعد.

ولم تتحرك الخوذة.

الفصل الرابع عشر

بعد الحادثة عند البوابة المغلقة، لم يعد أمامهما سوى المضي قدمًا.

سينا قادته عبر مسار وعر يهبط تدريجيًا بين صخور حادة وتلال منخفضة. الضباب هنا كان أسمك، ولونه أميل إلى البنفسجي الداكن الممزوج بخيوط خضراء تظهر وتختفي كعروق تحت جلد شاحب. الهواء صار أثقل، وكل نفس يأخذه أنور يترك طعمًا معدنيًا على لسانه.

ـ هذه المنطقة تُسمى «الخطوط»، قالت سينا دون أن تلتفت إليه. لا أحد من الراكعين يقترب منها إلا مضطرًا. الأشياء هنا... أقل استقرارًا.

وصلَا إلى أرض مستوية مغطاة بتراب رمادي ناعم. على سطحها كانت محفورة خطوط دوّامية عميقة، تتقاطع وتتشابك في أنماط معقدة تشبه دوائر كهربائية عملاقة أو خرائط نجوم مشوهة. بعضها يتوهج بين الحين والآخر بضوء قرمزي خافت، ثم يخبو.

أنور توقف عند حافة أول خط. شعر بشيء غريب؛ كأن الخطوط ليست مجرد حفر في الأرض، بل نبضات. شيء يشبه الشيفرة.

انحنى دون تفكير، ومدّ يده فوق أحد الخطوط المتوهجة. لم يلمسه. فقط ترك راحته قريبة منه. في اللحظة التالية جاءت صورة سريعة إلى رأسه: سلسلة من الرموز

المتداخلة، تشبه أكواد البرمجة القديمة التي كان يعمل عليها في نيورا تك، لكنها مكتوبة بلغة لا يعرفها ومع ذلك يفهم منطقها بشكل غريزي.

سحب يده بسرعة.

ـ ماذا حدث؟ سألته سينا وهي تراقبه بحذر.

ـ رأيت... شيئًا. كأنها تعليمات. أو مسار.

اقتربت منه ونظرت إلى الخط، ثم إليه.

ـ بعض القادمين الجدد يشعرون بأشياء غريبة في هذه المنطقة. خاصة من كان لهم علاقة بالآلات أو البرمجة في حياتهم السابقة. كأن المكان يتعرف على طريقة تفكيرهم.

أنور لم يجب. انحنى مجددًا فوق خط آخر، هذه المرة أطول وأكثر تعقيدًا. ركز. الرموز عادت، أوضح قليلًا. شعر أنه يستطيع... توجيهها. ليس التحكم الكامل، بل مجرد دفعة خفيفة.

حرك إصبعه في الهواء فوق الخط، متتبعًا أحد المسارات. الضوء القرمزي ارتجف، ثم انحرف قليلاً عن مساره الأصلي وسار في اتجاه مختلف لبضعة أمتار قبل أن يعود إلى طبيعته.

سينا أخذت خطوة إلى الوراء.

ـ هل فعلتَ ذلك أنت؟

ـ أعتقد... نعم.

كانت النظرة التي رمته بها مزيجًا من الدهشة والحذر. ثم قالت بصوت أخفض:

ـ هذا قد يكون مفيدًا. وقد يكون خطرًا كبيرًا. الكائن يلاحظ أي تغيير في الخطوط. وإذا شعر أن أحدًا يعبث بها...

لم تكمل. في الأفق البعيد، فوق التلال، ارتفع عمود رفيع من الضباب القرمزي وتحرّك ببطء في اتجاههما، كأنه يستشعر الاضطراب.

أنور وقف ونظر إلى يديه. كانتا ترتعشان قليلاً، لا من الخوف فقط، بل من الإحساس الغريب بالقوة المحدودة التي اكتشفها للتو. جزء من عقله الذي كان يبرمج واجهات آلة الأحلام قبل سنوات كان لا يزال يعمل، حتى هنا. ربما لأن «البوابة» نفسها مبنية على منطق مشابه لما كان يعرفه.

سينا أمسكت ذراعه.

ـ يكفي لهذا اليوم. لا تجرب أكثر الآن. نحتاج أن نجد مكانًا نختبئ فيه قبل أن يصل ما يستشعرنا.

سارا مبتعدين عن مركز الخطوط، ملتزمين بالحواف حيث كانت التوهجات أضعف. خلفهما، الخط الذي حرّكه أنور ظل يتوهج لفترة أطول من الآخرين، كأنه يحمل أثرًا جديدًا لم يُمحَ بعد.

وفي مكان ما أعمق داخل هذا العالم، شيء قديم بدأ يلتفت بانتباه أكبر نحو الحالم الذي لم يعد مجرد فريسة عادية.

الفصل الخامس عشر

لم يبتعدا كثيرًا عن منطقة الخطوط عندما جاء الهجوم.

كان الصوت أول ما نبههما: صوت احتكاك جاف، كحجارة تُسحب على تراب، قادم من بين الصخور على يسارهما. سينا توقفت فجأة ومدت ذراعها تمنع أنور من التقدم. عيناها ضاقتا وهي تمسح الظلال.

ـ لا تتحرك، همست.

ثم رآها.

ثلاثة أشكال انسلخت من بين الصخور كأنها كانت جزءًا منها. أجسادها نحيلة وطويلة، جلودها رمادية متشققة تشبه لحاء الأشجار الميتة، وأطرافها تنتهي بأصابع حادة كالمخالب. لا عيون واضحة، فقط تجاويف مظلمة في مكان الوجه، وفم شقّي يفتح ويغلق ببطء كأنما يتذوق الهواء.

سينا همست بسرعة:

ـ حراس صغار. يطوفون حول المناطق النشطة. لا تتكلم.

أحدها تقدّم بخطوة متشنجة. الآخران افترقا ليحيطا بهما. أنور شعر بغريزته القديمة تدفعه إلى الوراء، لكنه تذكر المسدس الإشعاعي الذي كان يحمله منذ دخل الحلم. مدّ يده إلى جنبه... ووجده هناك. السلاح الذي جاء معه من اللاشعور، أو من بقايا البرمجة القديمة للآلة.

رفع المسدس وصوّب نحو أقرب كائن. ضغط الزناد.

شعاع أزرق رفيع انطلق وضرب الكائن في منتصف صدره. الجسم الرمادي ارتجف بعنف، ثم تشقق كتمثال طيني جاف، وانهار إلى كومة من الغبار والتراب المتصلب. الآخران أصدرا صوتًا حادًا يشبه الصرير، واندفعا إلى الأمام.

سينا كانت أسرع مما توقع. التقطت من الأرض حجرًا حادًا وضربت الثاني على جانب رأسه بقوة كافية لتجعله يترنح. أما الثالث فقد وصل إلى أنور قبل أن يعيد تصويب المسدس. المخلب الأول مزق كم قميصه ووصل إلى ذراعه اليسرى. شعر بحرقة حادة، ثم بدفء سائل يسيل على جلده.

صرخ من الألم وأطلق الشعاع مرة أخرى من مسافة قريبة. الكائن انفجر هذه المرة إلى شظايا رمادية تناثرت على العشب البرونزي. سينا أنهت الثاني بضربة أخرى دقيقة على عنقه الهش، فسقط ولم يقم.

ساد صمت مفاجئ، لا يقطعه سوى تنفسهما السريع.

أنور نظر إلى ذراعه. الجرح لم يكن عميقًا، لكنه كان ينزف بغزارة، والحواف تبدو محروقة كأن المخلب كان يحمل حرارة أو سمًا خفيفًا. سينا اقتربت بسرعة، ومزقت جزءًا من قماش ثوبها الداخلي النظيف نسبيًا، وبدأت تلف الجرح بإحكام.

ـ اجلس، قالت بصوت آمر هادئ. لا نريد أن يشم الآخرون رائحة الدم أكثر من اللازم.

جلس على صخرة منخفضة بينما تُكمل ربط الجرح. أصابعها كانت ثابتة رغم التوتر، لكنها كانت ترتجف قليلًا عندما تobject> بشرته. شعر بدفء يديها أكثر مما شعر بالألم.

عندما انتهت، لم تسحب يديها فورًا. بقيت لحظة تمسك بذراعه، ثم رفعت عينيها إليه.

ـ أنت لا تتردد كثيرًا عندما يأتي الخطر، قالت بصوت أخفض.

ـ وأنتِ أيضًا.

ابتسامة باهتة مرت على وجهها ثم اختفت.

ـ لم يكن لديّ خيار منذ زمن طويل. أما أنت... فما زال لديك شيء تدافع عنه. هذا يجعلك أخطر... وأكثر عرضة للكسر.

الصمت بينهما هذه المرة لم يكن فارغًا. كان مليئًا بما لم يُقل بعد: بالدم على ذراعه، وبطريقة إمساكها به، وبالخوف المشترك الذي صارا يتنفسانه معًا. أنور شعر أن المسافة التي كانت تفصل بينهما منذ اللقاء الأول على السلم قد ضاقت أكثر تحت ضغط المخالب والألم.

في الأفق، فوق منطقة الخطوط التي غادراها، ارتفع عمودان جديدان من الضباب القرمزي وتحرّكا ببطء في اتجاههما. كأن المعركة الصغيرة لم تمر مرور الكرام.

سينا نظرت إلى العمودين، ثم إلى الجرح المربوط.

ـ نحتاج إلى مكان نختبئ فيه حتى يهدأ الدم ويتوقف عن النداء. هناك كهف قديم أعرفه أبعد قليلاً. هل تستطيع المشي؟

أومأ برأسه. نهض، وشعر بألم الجرح ينبض مع كل خطوة، لكنه لم يتوقف. سارا معًا هذه المرة جنباً إلى جنب، لا أحدهما أمام الآخر. خلفهما، بقايا الكائنات الثلاثة كانت تبدأ بالفعل في التفتت والاختفاء داخل العشب البرونزي، كأن المكان نفسه يرفض أن يبقي أثرًا للهزيمة.

وأنور، بينما يسير إلى جانب سينا ويداه لا تزال تتحسس الضمادة المرتجلة، أدرك أن العلاقة بينهما لم تعد مجرد تحالف بقاء.

صارت شيئًا أثقل... وأخطر.

الفصل السادس عشر

الكهف كان أضيق مما تخيل أنور، لكنه جاف ومحمي من ثلاث جهات. فتحة صغيرة في السقف كانت تسمح بدخول خيط رفيع من الضوء الشاحب، يكفي ليرى أحدهما ملامح الآخر. جلسا متقابلين على أرضية ترابية ناعمة. الجرح في ذراع أنور كان لا يزال ينبض، لكن النزيف توقف بفضل الضمادة المرتجلة.

سينا بدت لوقت طويل كأنها تجمع شيئًا داخلها. ثم بدأت تتكلم بصوت هادئ منتظم، كمن يروي حكاية حفظها عن ظهر قلب لكنه يخشى نسيانها.

ـ الكائن ليس إلهًا، وليس مجرد وحش. هو... تراكم. منذ أن بدأ البشر يحلمون أحلامًا عميقة بما يكفي لتترك أثرًا، بدأ شيء يتجمع في الطبقات السفلى من بلدان الأحلام. كلما مات حالم هنا أو استسلم تمامًا، ازداد هذا الشيء كثافة. الراكعون يسمونه «الحارس»، وبعض القدامى يسمونه «العطش». الاسم الحقيقي لا يُنطق لأنه ليس له اسم واحد.

أنور استمع دون أن يقاطع. كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها بهذا التفصيل.

ـ هو يتغذى على شيئين: الخوف الجديد، والذاكرة الحية. الخوف يعطيه القوة المباشرة، والذاكرة تعطيه الشكل. لهذا يستخدم صور من نحبهم. ليلى... كانت

واضحة جدًا داخلي، فاستطاع أن يأخذ صوتها ووجهها بسهولة. كلما كانت الذكرى أقوى وأكثر ألمًا، كان وصوله أسهل.

توقفت لحظة، ومررت لسانها على شفتيها الجافتين.

ـ أما نقاط ضعفه... فهي قليلة. أولاً: الخطوط. أنت رأيتها. هي شبكة قديمة كانت تستخدمها الأحلام الأولى لتنظيم نفسها قبل أن يسيطر هو عليها. إذا استطاع أحد أن يحرّكها بما يكفي، أو يعكس اتجاه بعض النبضات، فإنه يرتبك لفترة قصيرة. الفترة قصيرة جدًا، لكنها موجودة.

رفعت عينيها إليه.

ـ ثانيًا: القربان الاختياري. إذا قدّم له أحدهم شيئًا ثمينًا بإرادته الكاملة، لا بالخوف ولا بالإجبار، فإنه يضطر إلى التوقف لحظة... كأنه يرتوي أكثر مما ينبغي فيختنق قليلاً. لهذا الراكعون يقدمون أنفسهم. هم يجعلون العطاء إجباريًا بالخوف، فيبقى التأثير محدودًا. أما العطاء الحر... فهو نادر، ومؤلم له أكثر.

أنور شعر بقلبه يتسارع.

ـ وهل جرب أحد ذلك من قبل؟

ـ جربتُ أنا، قالت ببساطة. بعد أن أخذ ليلى بأشهر. وقفت أمامه في القاعة الكبرى وعرضت نفسي بالكامل. توقّف. الضباب انحسر حوله لدقائق طويلة. استطعت أن أهرب حينها إلى المناطق البعيدة. لكنه عاد أقوى لاحقًا، وكأنه تعلم من التجربة. لم أعد أجرؤ على المحاولة مرة ثانية وحدي.

الصمت ملأ الكهف. أنور كان يرى الآن طبقات أخرى في عينيها: طبقات من حسابات قديمة، ومحاولات فاشلة، وسنوات من المراقبة الصامتة.

ـ لماذا تخبرينني بهذا الآن؟

سينا أسندت رأسها إلى جدار الكهف وأغلقت عينيها لحظة.

ـ لأنك حرّكت الخطوط. ولأنك لم تنهر بعد. ولأن الجرح في ذراعك يعني أن المكان بدأ يراك كتهديد صغير... لا كفريسة عادية فقط. إذا قررنا أن نفعل شيئًا أكبر من الاختباء، فأنت بحاجة إلى أن تعرف ما أعرفه. وإلا سنموت بطريقة غبية.

فتحت عينيها ونظرت إليه بثبات.

ـ هناك شيء أخير. المعبد الكبير ليس مجرد مكان عبادة. هو... قلبه الجزئي. إذا وصلنا إلى الغرفة ذات الجدران السبعة، حيث تلتقي كل الخطوط الرئيسية، واستطعنا عكس النبضة الكبرى في لحظة يكون فيها مشغولاً بقربان أو بشخص جديد... فقد نؤذيه بما يكفي ليفتح طريقًا للخروج. أو على الأقل يضعف لفترة طويلة تسمح لنا بالاختباء في طبقات أعمق لا يصل إليها بسهولة.

أنور لم يرد فورًا. كان يهضم الكلمات واحدة واحدة. الخروج لم يعد مستحيلاً نظريًا. لكنه صار مرتبطًا بثمن باهظ وخطة مجنونة.

ـ وأنتِ؟ سأل أخيرًا. إذا نجحنا... هل ستخرجين معي؟

سينا صمتت طويلًا هذه المرة. ثم قالت بصوت أخف من السابق:

ـ لا أعرف إن كان جسدي لا يزال ينتظرني هناك على الجانب الآخر. مر وقت طويل. ربما بقي مني هنا أكثر مما بقي هناك. لكنني سأحاول. ليس من أجلك فقط... بل لأنني تعبت من أن أكون الشاهدة الوحيدة على كل هذا.

مدت يدها في الضوء الخافت ولمست الضمادة على ذراعه لمسة قصيرة.

ـ استرح الآن. الجرح يحتاج أن يهدأ، وعقلك أيضًا. غدًا... أو ما يشبه الغد هنا... سنبدأ في التحرك نحو المعبد.

خارج الكهف، كان الضباب يتحرك ببطء في موجات منتظمة، كأنه يستمع إلى ما قيل داخل التجويف الصخري ويسجله في مكان ما بعيد.

وأنور أغمض عينيه، لا لينام، بل ليرتب في رأسه الخريطة الجديدة التي رسمتها سينا بكلماتها: الخطوط، والقربان الاختياري، والغرفة ذات الجدران السبعة.

لأول مرة منذ دخل هذا العالم، لم يعد الخروج مجرد أمل غامض.

صار خطة.

الفصل السابع عشر

عندما خرجا من الكهف، كان العالم قد تغيّر.

الضباب لم يعد يأتي على شكل موجات متقطعة أو خيوط عابرة. كان يحيط بهما الآن كجدار دائري مكتمل، لونه قرمزي غامق وثابت، لا يبهت ولا يتحول. الهواء نفسه صار أثقل، وكل نفس يأخذه أنور يترك في حلقه طعمًا يشبه الصدأ. العشب البرونزي تحت أقدامهما لم يعد يرسل موجات إلى الأفق؛ كان يتحرك في دوائر ضيقة حولهما فقط، كأنه يحاصرهما هو الآخر.

سينا وقفت تنظر إلى الجدار الضبابي لوقت طويل دون كلمة. ثم قالت بصوت هادئ جدًا:

ـ هو لم يعد يبحث. هو يعرف.

أنور رفع المسدس الإشعاعي غريزيًا، رغم أنه كان يدرك أن السلاح لن يفعل شيئًا يُذكر ضد ما يحاصرهما الآن.

ـ كم من الوقت لدينا قبل أن يصل؟

ـ لا أحد يعرف. أحيانًا ساعات. أحيانًا أقل. الضباب القرمزي الدائم يعني أنه بدأ يطوي المسافات. لم يعد يحتاج إلى أن يمشي نحونا... هو يجعل المكان نفسه يقرّبنا منه.

نظرَا معًا إلى الاتجاه الذي يعرفان أنه يؤدي إلى المعبد الكبير. السماء هناك كانت أغمق، وفي وسطها عمود ضبابي سميك يرتفع كمدخنة عملاقة، ينبض ببطء كقلب بعيد.

سينا التفتت إليه. وجهها في الضوء القرمزي بدا شاحبًا وحادًا، لكن عينيها كانتا ثابتتين.

ـ لدينا خياران فقط الآن. نركض إلى المناطق الأبعد ونختبئ أيامًا أو أسابيع إضافية، وهو سيجدنا في النهاية لأنه تعلّم رائحتنا. أو نتجه إليه قبل أن يكتمل طيّ المسافة، ونحاول أن نصل إلى الغرفة ذات الجدران السبعة ونحن لا نزال نملك بعض القدرة على الحركة والمفاجأة.

أنور لم يجب فورًا. تذكر الشقة، والخوذة، ووجه هدى وهي تمسك يده في العالم الحقيقي دون أن يشعر. تذكر نورا، وليلى، والراكعين، والعظام البيضاء حول البوابة المنهارة. ثم نظر إلى الجرح الملفوف على ذراعه، وإلى يد سينا التي كانت لا تزال تحمل آثار دمه الجاف.

ـ إذا ذهبنا إليه الآن... ما هي فرصنا؟

ـ ضعيفة، أجابت بصراحة تامة. لكنها أفضل من فرصنا إذا انتظرنا. وأنت حرّكت الخطوط مرة. ربما تستطيع أن تفعل شيئًا أكبر إذا وصلنا إلى المركز. وأنا... أعرف الطريق إلى الغرفة السبعية أفضل من معظم من لا يزالون يتحركون هنا.

الصمت بينهما هذه المرة كان مختلفًا. لم يكن صمت خوف فقط، بل صمت قرار يتشكل.

أنور رفع رأسه ونظر مباشرة إلى العمود القرمزي البعيد.

ـ حسنًا. نذهب إليه.

سينا أومأت برأسها مرة واحدة قصيرة. لم تبتسم، ولم تقل شيئًا بطوليًا. فقط عدّلت الضمادة على ذراعه بحركة سريعة عملية، ثم بدأت تسير في اتجاه المعبد.

سار إلى جانبها. الجدار الضبابي القرمزي انفتح أمامهما قليلاً كأنه يسمح لهما بالمرور، أو كأنه يسحبهما إلى الداخل. خلفهما، الكهف الذي استراحا فيه اختفى تدريجيًا في السديم، وكأن المكان يمحو آثار من قرر ألا يختبئ بعد الآن.

بينما كانا يقطعان السهل البرونزي تحت السماء الخانقة، شعر أنور أن شيئًا ما قد انكسر داخله نهائيًا: الأمل الساذج في العودة السهلة، والخوف من المواجهة، والاعتقاد بأنه لا يزال مجرد حالم عابر.

صار الآن جزءًا من هذه الحرب الصغيرة ضد الشيء الذي يتنفس في قلب المعبد.

وإلى جانبه، سارت سينا بخطوات ثابتة، شعرها الأشقر يتطاير في الهواء الثقيل، كأنها هي الأخرى قد أغلقت وراءها آخر أبواب التردد.

أمامهما، العمود القرمزي كان ينمو مع كل خطوة، وينبض، وينتظر.

الفصل الثامن عشر

كلما اقتربا، صار المعبد أصعب على العين.

في البداية بدا ككتلة بلورية ضخمة ترتفع من السهل، زرقاء ضبابية اللون، لها أبراج ونوافذ دائرية وأقواس. لكن ما إن حاول أنور تثبيت ملامحه في ذاكرته حتى تاهت التفاصيل. الأبراج تميل ثم تستقيم، النوافذ تتكاثر ثم تختفي، والحواف تتداخل كأنها موجودة على حدود بعد آخر لا تستطيع عين الإنسان العادي أن تثبت عليه.

سينا لاحظت حيرته.

ـ لا تحاول أن تحفظ شكله، قالت وهي تسير بخطوات منتظمة. المعبد لا يُرى بالكامل من الخارج. كل من ينظر إليه يأخذ منه ما يستطيع عقله تحمله، والباقي يُرفض. إذا ألححتَ أكثر مما ينبغي، يبدأ الصداع ثم الغثيان ثم... أشياء أسوأ.

الضباب القرمزي كان يرافقهما الآن كظل ملتصق. لم يعد جدارًا دائريًا بعيدًا؛ صار يلمس جلدهما أحيانًا، باردًا ولزجًا، ويترك على الملابس أثرًا رطبًا يختفي بعد ثوانٍ. الهواء امتلأ بطنين منخفض مستمر، كصوت محرك بعيد أو كنبض قلب عملاق مدفون تحت الأرض.

أنور شعر بالضغط على مؤخرة رأسه يزداد. الشيء نفسه الذي أحس به في الرواق قبل أيام، لكنه أقوى وأكثر تركيزًا. كأن أصابع غير مرئية تختبر صلابة جمجمته من جديد، وتبحث عن الشقوق.

ـ هل تشعرين به أيضًا؟

سينا أومأت برأسها دون أن تلتفت.

ـ منذ أن دخلنا نطاقه المباشر. هو لا يحتاج إلى أن يرانا بعيونه. هو... يتذوقنا من خلال المسافة.

توقفَا عند حافة منطقة مختلفة. العشب البرونزي انتهى فجأة، وحلّت محله أرض صخرية ملساء بلون رمادي مزرق، مليئة بخطوط محفورة أعمق وأكثر تعقيدًا من تلك التي رآها أنور في المنطقة السابقة. الخطوط هنا كانت تتوهج بانتظام، وتنبض في اتجاه المعبد كأنها عروق تغذي شيئًا ما في الداخل.

سينا انحنت فوق أحد الخطوط الرئيسية، ومررت إصبعها فوقه دون أن تلمسه.

ـ هذه الشرايين الكبرى. كلها تصب في الغرفة السبعية. إذا وصلنا إلى هناك وكان لا يزال لديك بعض القدرة على تحريكها... فقد نحظى بثوانٍ ثمينة.

رفعَا رأسيهما معًا. المعبد بات الآن على مسافة قريبة بما يكفي ليريا المدخل الرئيسي: قوس ثلاثي ضخم، أطول من أي شيء رآه أنور في حياته، مغطى بنقوش بارزة تتحرك إذا حدّق فيها أكثر من لحظة. من داخل القوس كان يخرج ضوء شاحب متقطع، ومعه صوت همهمة جماعية خافتة، تشبه ما سمعاه عند الراكعين لكنها أعمق وأكثر انتظامًا.

سينا أخذت نفسًا عميقًا.

ـ بمجرد أن ندخل تحت القوس، لن يكون هناك رجوع سهل. الضباب داخله أكثف، والخطوط أقوى، وهو أقرب. إذا ترددتَ... فهذا آخر مكان يمكنك فيه أن تتردد.

أنور نظر إلى ذراعه المصابة، ثم إلى المسدس في حزامه، ثم إلى وجه سينا في الضوء القرمزي الخانق. لم يعد يرى فيها فقط المرأة التي التقاها مغطاة بالدماء على السلم. صارت شيئًا آخر: شريكة في قرار مجنون، وحاملة لمعرفة دفعَت ثمنها سنين طويلة.

ـ أنا جاهز، قال ببساطة.

هي أومأت مرة واحدة. ثم بدأت تمشي نحو القوس الثلاثي دون أن تنظر خلفها.

أنور تبعها. مع كل خطوة كانت تفاصيل المعبد تتداخل أكثر في عينيه، والصداع يبدأ في النبض خلف جبهته، والطنين في أذنيه يعلو. لكنه لم يتوقف.

عندما وصلا إلى ظل القوس، شعر كلاهما بالهواء يتغير فجأة: صار أبرد، وأثقل، ومشحونًا برائحة معدنية حادة تشبه رائحة الدم والطاقة المحروقة معًا.

وخلفهما، في السهل الذي تركاه، أغلق الضباب القرمزي الطريق كستارة ثقيلة، محا أي أثر لخطوتهما الأخيرة قبل الدخول.

أمامهما كان المعبد يفتح فمه.

الفصل التاسع عشر

تحت القوس الثلاثي كان الظلام مختلفًا.

ليس غياب ضوء فقط، بل مادة كثيفة تلتصق بالجلد وتدخل إلى الرئتين مع كل نفس. سينا تقدمت بخطوات قصيرة محسوبة، وأنور يسير ملتصقًا بها تقريبًا. الجدران على الجانبين كانت بلورية شبه شفافة، لكنها تعكس صورًا مشوهة لأشياء لا وجود لها في الممر: وجوه، أيدٍ ممدودة، أبواب تفتح وتغلق على فراغ.

بعد مسافة بدت أطول مما ينبغي، انفرج الممر على القاعة الكبرى.

كانت واسعة بشكل يفوق أي مقياس بشري. السقف يضيع في علوّه داخل ضباب داخلي دائم، والأعمدة المحيطة بها منحوتة على شكل كائنات هجينة تلتف حول نفسها. في الوسط، وعلى مسافة بعيدة نسبيًا، وقف التمثال الهائل.

هو نفسه الذي رأوه من بعيد مع الراكعين، لكنه هنا أكبر وأوضح وأكثر رعباً. الجسد بشري ضخم، الرأس حيواني مفترس غير محدد المعالم، والأذرع الطويلة تنتهي بأصابع حادة تلامس الأرض. عيناه الفارغتان تلمعان بضوء قرمزي خافت ينبض ببطء. حول قاعدته قنوات محفورة بعمق، يسري فيها السائل الداكن نفسه الذي رأوه سابقًا.

وأمام التمثال... كانوا راكعين.

أكثر مما رأوه في المرة الأولى. خمسون أو ستون شخصًا على الأقل، صفوف منتظمة، جباههم تلامس الأرض، وهمهمتهم الجماعية تملأ القاعة بصوت منخفض مستمر كطنين آلات قديمة. في المقدمة وقف الرجل الأصلع ذو الرداء الأسود المخطط بالأحمر — «الحافظ» — رافعًا يديه، يتمتم بكلمات تتردد أصداؤها بشكل غير طبيعي بين الأعمدة.

سينا جذبت أنور إلى خلف أحد الأعمدة الجانبية قبل أن يراهما أحد.

ـ لا تخرج إلى الضوء، همست. الراكعون هنا أكثر حساسية. بعضهم لم يعد يرى بالعينين فقط.

أنور راقب من خلف العمود. الطقس كان في مرحلة متقدمة. الحافظ أشار إلى أحد الراكعين في الصف الأمامي. رجل متوسط العمر نهض ببطء، وخطا نحو القاعدة بخطوات مرتجفة لكنه مطيعة. عندما وصل، ركع ومد عنقه. الخنجر المعقوف ظهر من جديد في يد الحافظ، ولمع تحت الضوء القرمزي.

أنور شعر بعضلاته تتوتر. ذراعه المصابة نبضت بألم حاد كأنها تذكّره. سينا أمسكت كوعه بقوة.

ـ لا. ليس الآن. نحن لم نصل بعد إلى الغرفة السبعية. أي حركة هنا ستجعلهم جميعًا علينا، وهو سيأتي أسرع مما نحتمل.

الخنجر هبط. الرجل لم يصرخ. السائل الداكن تدفّق إلى القنوات وسار ببطء نحو التمثال. الصدر الحجري ارتفع وانخفض مرة واحدة ثقيلة، والهمهمة الجماعية ارتفعت نبرة لثانية ثم عادت إلى مستواها السابق.

الحافظ رفع يديه مجددًا، وكأنما يشكر.

سينا أدارت رأسها نحو أنور. وجهها في الظل كان متوترًا، لكن عينيها واضحتين.

ـ الغرفة السبعية خلف التمثال مباشرة. هناك ممر جانبي ضيق يستخدمه الحافظ وخدمه المقربون فقط. إذا انتظرنا حتى ينتهي الطقس وينصرف معظمهم... قد نمر دون أن يُرفع الإنذار فورًا.

ـ وكم يستغرق ذلك؟

ـ لا أعرف. أحيانًا يقدمون واحدًا فقط. أحيانًا أكثر. يعتمد على مدى جوعه هذه الدورة.

في هذه اللحظة، كأنما ردًا على كلامها، أشار الحافظ إلى امرأة في الصف الثاني. نهضت هي الأخرى وسارت نحو القاعدة.

أنور أغلق عينيه لحظة. عندما فتحهما مجددًا، كان ينظر إلى سينا لا إلى الطقس.

ـ إذا طال الانتظار أكثر مما ينبغي، والضباب خارج المعبد يطوي المسافة... قد نُحاصر هنا قبل أن نتحرك.

سينا صمتت ثانية، ثم أومأت برأسها ببطء.

ـ إذن نتحرك في أول فرصة يحدث فيها ارتباك. عندما يسقط الجسد التالي ويزداد الانشغال بالدم... نركض نحو الممر الجانبي. لا تتوقف لأي سبب. ولا تنظر إلى عيني التمثال مباشرة إن استطعت.

على بعد أمتار قليلة منهم، هبط الخنجر للمرة الثانية في ذلك اليوم. الهمهمة ارتفعت من جديد، والتمثال تنفّس.

وأنور وسينا انكمشا أكثر خلف العمود، يعدّان الأنفاس، وينتظران اللحظة الضيقة التي قد تكون فرصتهما الوحيدة للمرور إلى قلب الشيء الذي يقف في وسط القاعة وينبض.

الفصل العشرون

اللحظة التي انتظراها لم تأتِ بالطريقة التي خططا لها.

بعد القربان الثالث، ارتفعت الهمهمة الجماعية فجأة إلى نبرة أعلى وأكثر اضطرابًا. الحافظ توقف عن التمتمة، ودار حول نفسه ببطء كأنما يشم الهواء. ثم رفع رأسه ونظر مباشرة إلى العمود الذي يختبئان خلفه.

سينا شعرت بالأمر قبل أنور. جسدها تيبّس، وعيناها اتسعتا.

ـ لقد شعر بنا، همست.

في اللحظة التالية حدث شيء لم يتوقعه. الضباب الداخلي في القاعة تحرك كأنه حي، وتكثّف حول سينا تحديدًا. خيوط قرمزية رفيعة امتدت من اتجاه التمثال ولفّت معصمها وكتفيها كأيدٍ غير مرئية. جسدها ارتجف مرة واحدة، ثم بدأت قدماها تتحركان رغمًا عنها نحو الضوء المفتوح.

ـ سينا!

حاول أنور الإمساك بها، لكن الخيوط كانت أقوى. سُحبت إلى الأمام بخطوات متصلبة، كدمية تُجرّ. الراكعون رفعوا رؤوسهم واحدًا تلو الآخر، والهمهمة تحوّلت إلى صوت واحد منتظم يشبه الصلاة.

الحافظ ابتسم ابتسامة رفيعة باردة. رفع يده وأشار إليها.

ـ قربان جديد... جاء بنفسه هذه المرة.

سينا كانت تقاوم بوضوح. عضلات وجهها متوترة، ويداها تحاولان نزع الخيوط غير المرئية عن جسدها، لكن الخطوات استمرت نحو المنصة السوداء أمام التمثال. أنور لم يعد يفكر. خرج من خلف العمود راكضًا، والمسدس الإشعاعي مرفوع.

أطلق الشعاع نحو أقرب صف من الراكعين. ثلاثة منهم سقطوا أو تراجعوا صارخين، فانفتح ممر صغير. ركض عبره مباشرة نحو سينا. الحافظ صرخ بأمر حاد، واندفع عدد من الراكعين نحوه.

وصل إليها قبل أن تخطو على المنصة. أمسكها من خصرها وسحبها بقوة إلى الخلف. الخيوط القرمزية تقاوم، تشدّها نحو التمثال، لكنها ضعفت للحظة عندما قطع أنور مسارها بجسده. سينا سقطت على ركبتيها تلهث، وهو يقف أمامها مباشرة، المسدس مصوّب نحو الحافظ.

ـ ابتعدوا عنها، صاح.

الحافظ لم يتحرك من مكانه. نظر إلى أنور بعينين هادئتين تمامًا، كمن يرى أمرًا مثيرًا للاهتمام لا خطرًا حقيقيًا.

ـ الحالم الجديد الذي يحرّك الخطوط، قال بصوت واضح يصل إلى كل القاعة. سمعنا عنك. الكائن مهتم... بك أكثر مما هو مهتم بها الآن.

الراكعون أحاطوا بهما تدريجيًا، لكنهم لم يهجموا بعد. كانوا ينتظرون إشارة. سينا نهضت بصعوبة، واستندت إلى ظهر أنور. صوتها جاء مبحوحًا لكنه ثابت:

ـ لا تستمع إليه. هو يطيل الوقت حتى يكتمل حضوره.

الحافظ ضحك ضحكة منخفضة.

ـ حضوره اكتمل منذ دخلتما القاعة. أنتما داخل فمه الآن. كل ما نفعله هو... ترتيب المائدة.

رفع الخنجر المعقوف وأشار به نحو أنور.

ـ سلّمها، وانضم إلينا. أو قدم نفسك بدلاً منها. الكائن يقبل البدائل أحيانًا... إذا كانت ذات قيمة كافية.

أنور شعر بسينا تشدّ على ذراعه من الخلف.

ـ لا تفكر حتى في ذلك، همست بقوة. اركض نحو الممر الجانبي عندما أقول لك.

ثم رفعت صوتها فجأة وصرخت بكلمة واحدة حادة بلغة لم يفهمها أنور. الهواء حولهم ارتجف. الخطوط المحفورة في أرضية القاعة لمعَت للحظة واحدة قوية، والتمثال نفسه مال برأسه كأنما انتبه إلى شيء مزعج.

الارتباك حدث.

عدد من الراكعين تراجعوا أو سقطوا على ركبهم من جديد في فوضى. الحافظ نفسه فقد توازنه لثانية. سينا جذبت أنور بعنف.

ـ الآن!

ركضَا معًا نحو الجانب الأيمن من القاعة، حيث كان الممر الضيق الذي ذكرته سابقًا يختبئ بين عمودين ملتويين. الصرخات ارتفعت خلفهما، وخطوات الراكعين تطاردهم، والضباب القرمزي بدأ يندفع من حول قاعدة التمثال كالموج.

وصلَا إلى فم الممر في اللحظة التي امتدت فيها خيوط قرمزية جديدة لتلامس كعب سينا. أنور جذبها إلى الداخل بقوة، وأطلق شعاعًا أخيرًا خلفه دون تصويب. الضوء الأزرق قطع أحد الخيوط، فصدر صوت أشبه بالأنين من القاعة كلها.

الممر ابتلعهما.

خلفهما، صوت الحافظ كان يصل واضحًا رغم المسافة، مليئًا بالغضب والثقة في آن واحد:

ـ لن تبعدا. الغرفة السبعية تنتظركما... وهو أيضًا.

والممر الضيق أمامهما كان ينحدر إلى الأسفل، نحو قلب المعبد، حيث الجدران السبعة والخطوط الكبرى والشيء الذي بدأ يفتح عينيه بالكامل.

الفصل الحادي والعشرون

الممر انحدر بهم بسرعة أكبر مما توقعا.

الجدران على الجانبين صارت أقرب، والخطوط المحفورة فيها تتوهج بضوء قرمزي متقطع كأنها عروق تُضخ دمًا. الصوت خلفهما كان يتبعهم: صراخ الراكعين، وأوامر الحافظ، وطنين أعمق يأتي من تحت الأرض نفسها. سينا كانت تركض في المقدمة، وأنور خلفها مباشرة، ذراعه المصابة تنبض مع كل خطوة.

ثم انفتح الممر فجأة على الغرفة.

كانت دائرية تقريبًا، لكن الزوايا السبعة واضحة كأنها ترفض أن تكون كاملة الاستدارة. الجدران السبعة ترتفع عاليًا وتختفي في سقف من ضباب داخلي دائم. على الأرض، الخطوط الكبرى تلتقي كلها في مركز واحد: دائرة محفورة بعمق، محاطة برموز دوّامية أكثر تعقيدًا من أي شيء رآه أنور حتى الآن. الهواء هنا كان ثقيلًا لدرجة أنه يحتاج إلى جهد ليتحرك داخل الرئتين، ومشبعًا برائحة حادة تشبه رائحة الأوزون والدم المحروق معًا.

سينا توقفت عند الحافة ولم تدخل الدائرة المركزية.

ـ هذا هو القلب، قالت بصوت مبحوح من الجري. كل النبضات تمر من هنا.

قبل أن يتمكن أنور من الرد، اهتزت الغرفة.

الخطوط على الأرض لمعَت دفعة واحدة بقوة تجعل العين تؤلم. الجدران السبعة بدأت ترتعش كأنها جلد حي. ثم، من المركز نفسه، بدأ الشيء يظهر.

لم يخرج من باب أو شق. هو تكثّف.

الضباب القرمزي في وسط الغرفة دار حول نفسه بسرعة متزايدة، ثم اكتسب كثافة وشكلاً. في البداية بدا ككتلة عديمة المعالم، ثم امتد منها ما يشبه الأذرع، ثم ما يشبه رأسًا. لكنه لم يستقر على شكل واحد. كان رباعي الأبعاد بطريقة تجعل العين البشرية ترفض استيعابه بالكامل: أجزاء منه تبدو أقرب مما هي عليه، وأجزاء أخرى تبتعد داخل نفسها، وأسطح تلتف على أسطح. اللون القرمزي كان ينبض من داخله كقلب مكشوف، والطنين الذي كان يسمعانه من بعيد صار الآن صوتًا حيًا يملأ الرأس من الداخل.

أنور شعر بالضغط على جمجمته يتحول إلى ألم حقيقي. ذكريات بدأت تتسرب رغمًا عنه: وجه نورا وهي تلوّح عند الباب، صوتها وهي تقول له ألا ينسى الأكل، ثم وجه المرأة في التجربة رقم ٤٧ وهي تهمس «الباب يفتح في اتجاه واحد». الكائن كان يبحث داخل رأسه، يقلب الذكريات كأوراق قديمة.

سينا سقطت على ركبة واحدة، تمسك رأسها بكلتا يديها.

ـ هو هنا... بالكامل، تمتمت. لا تنظر إلى مركزه مباشرة إن استطعت.

الكتلة القرمزية مالت نحوهما. لم يكن لها فم، لكن الصوت وصل إلى عقليهما معًا، لا عبر الأذنين:

«حالم جديد يحرّك الخطوط... وحالمة قديمة ما زالت ترفض. جيد. الاثنان معًا أوفران.»

الخيوط القرمزية امتدت من الكتلة هذه المرة بوضوح أكبر، أسمك وأسرع. بعضها اتجه نحو سينا، وبعضها نحو أنور. الأرض تحت أقدامهما اهتزت، والخطوط المركزية بدأت تضيء بترتيب متتالٍ كأنما تُعدّ شيءًا.

أنور رفع المسدس وأطلق. الشعاع الأزرق ضرب أحد الأذرع الممتدة فانشطر جزء منه إلى ضباب متناثر، لكنه التأم من جديد خلال ثوانٍ. الكائن لم يتراجع. بدا فقط... مهتمًا أكثر.

سينا رفعت رأسها بصعوبة. الدم كان يسيل من أنفها خيطًا رفيعًا.

ـ الخطوط... حرّكها الآن إن كنت تستطيع. قبل أن يكمل الربط.

أنور سقط على ركبتيه عند حافة الدائرة المركزية. مدّ يديه فوق أقرب الخطوط الكبرى، محاولاً أن يستدعي الشعور الذي أحس به في المنطقة السابقة. الرموز ظهرت في رأسه من جديد، أوضح هذه المرة وأكثر إلحاحًا. شعر بالنبض تحت راحته كتيار كهربائي حي.

خلفه، صوت سينا كان يصل مقطوعًا:

ـ اعكس الاتجاه... نحو نفسه. اجعله يبتلع نبضته.

الكتلة القرمزية اقتربت أكثر. أحد الأذرع لمس كتف أنور فشعر ببرد يحرق، وذكريات أخته تندفع بقوة أكبر حتى كاد يفقد التوازن. لكنه ثبت. حرك أصابعه فوق الخط، دافعًا النبضة في الاتجاه المعاكس بكل ما تبقى له من تركيز.

الضوء القرمزي على الأرض ارتجف... ثم انعكس.

وللحظة واحدة قصيرة جدًا، بدا أن الغرفة كلها تتنفس عكس اتجاهها.

الفصل الثاني والعشرون

اللحظة التي انعكست فيها النبضة كانت قصيرة كوميض برق.

لكنها كانت كافية.

الكتلة القرمزية ارتجفت بعنف، وامتد منها صوت يشبه الأنين المكتوم عبر الجدران السبعة. الخطوط على الأرض لمعَت بلون أفتح للحظة، كأنها رفضت الأمر ثم أجبرت عليه. أنور شعر بالتيار يرتد إلى يديه كصدمة قوية، فسقط إلى الخلف وهو يعض على أسنانه من الألم.

سينا استغلت الارتباك.

نهضت من وضعية الركوع واندفعت إلى الأمام، لا نحو الكائن، بل نحو أحد الخطوط الجانبية التي كانت لا تزال تتوهج بعنف. وضعت كفيها عليها وصرخت بكلمات سريعة حادة باللغة نفسها التي استخدمتها في القاعة الكبرى. الهواء اهتز، وجزء من الضباب القرمزي انفصل عن الكتلة الرئيسية وتلاشى.

لكن الكائن لم يتراجع طويلًا.

استعاد تماسكه أسرع مما توقعا. الذراع التي انشطرت التأمَت، وامتدت خيوط جديدة أكثر كثافة. هذه المرة لم تتجه إلى جسديهما فقط، بل إلى رأسيهما مباشرة.

أنور رأى نورا.

ليس كذكرى باهتة. رآها واقفة أمامه داخل الغرفة، بملابس السفر نفسها التي ارتدتها في يوم الحادث، وهي تبتسم له تلك الابتسامة المتعبة الودودة. مدت يدها وقالت بصوتها الحقيقي تمامًا:

ـ لماذا تركتني أركب القطار وحدي ذلك اليوم؟

الألم كان حادًا كسكين. كاد يفقد تركيزه على الخطوط. اليد التي كانت تحاول عكس النبضة ارتخت.

في الجهة المقابلة، كانت سينا تواجه شيئًا أشد قسوة. ليلى ظهرت لها بوضوح كامل، الوشاح الأزرق لا يزال حول عنقها، والدم يغطّي جانب وجهها كما كان في اللحظة الأخيرة. الصوت جاء حزينًا وعتابًا:

ـ أنتِ من أقنعتني بالدخول. أنتِ من قالت إن الرموز ستحمينا. لماذا هربتِ وتركْتِني؟

سينا انحنت إلى الأمام كأن ضربة وصلت إلى معدتها. الدموع اختلطت بالدم الذي كان يسيل من أنفها، لكنها لم تبتعد عن الخط.

أنور صرخ نحوها، صوته يخرج بصعوبة:

ـ لا تستمعي! هي ليست هي!

ثم عاد إلى الخطوط بكل ما تبقى له. هذه المرة لم يكتفِ بعكس اتجاه واحد. حاول أن يفعل ما كان يفعله في أيام البرمجة القديمة عندما كانت الأنظمة تنهار: البحث عن الحلقة المفرغة، عن الأمر الذي يجعل النظام يستهلك نفسه. دفع النبضات في دوائر مغلقة، يجعل الخط يطعم الخط، والضوء يبتلع الضوء.

الغرفة ارتجفت بعنف أكبر. أحد الجدران السبعة تشقق بصوت عالٍ، وقطع صغيرة من المادة البلورية تساقطت من الأعلى. الكتلة القرمزية تقلصت للحظة، ثم تمددت بغضب. الصوت وصل إلى عقليهما هذه المرة كغضب صريح:

« suffices. أنتما لا تفهمان الثمن.»

الخيوط القرمزية التفت حول ساقي سينا وسحبتها نحو المركز. جسدها انزلق على الأرض رغم مقاومتها. أنور ترك الخطوط للحظة واندفع نحوها، ممسكًا بذراعيها بكل قوته. شعرا معًا بالبرد الحارق وهو يحاول فصلهما عن بعض.

سينا نظرت إليه من مسافة قريبة جدًا. عيناها كانتا مليئتين بالألم والوضوح في آن واحد.

ـ أكمل ما بدأتَه، قالت بصوت مقطوع. لا تدعني أوقفه الآن. أنا أعرف كيف أؤخره... قليلًا.

قبل أن يفهم قصدها تمامًا، استدارت نحو الكتلة وصرخت باسم أختها بصوت عالٍ وواضح:

ـ ليلى!

الكتلة توقفت لجزء من الثانية. الذكرى التي كان يستخدمها ضدها انقلبت عليه للحظة، كأنها شوكة ارتدت إلى الداخل. سينا استغلت التوقف ومدّت يديها نحو أقرب خيط قرمزي وأمسكت به عمدًا، جاعلة نفسها القناة.

أنور رأى ما تفعله. فهم الثمن.

ـ لا!

لكنها كانت قد بدأت بالفعل. جسدها ارتجف بعنف وهي تمتص جزءًا من النبضة عبر جسدها، معطّلة الكائن لثوانٍ إضافية ثمينة. الدم سال هذه المرة من أذنيها أيضًا، لكنها ظلت ممسكة.

أنور عاد إلى الخطوط كالمجنون. لم يعد يفكر في الخروج أو النجاة. فقط في كسر الدائرة. دفع كل ما تبقى له من معرفة ومن ألم ومن ذاكرة نورا نفسها في اتجاه واحد: جعل النظام يأكل نفسه.

الضوء على الأرض انفجر فجأة بلون أبيض مزرقّ. الخطوط المركزية صارت كأنها نار سائلة. والكتلة القرمزية... صرخت.

الصوت لم يكن مسموعًا بالأذنين فقط. هو مرّ عبر العظام والدم والدماغ. أحد الجدران السبعة انهار جزئيًا. الأرض تصدعت. والخ يوط التي كانت تلتف حول سينا ارتخت للحظة كافية لأنور ليسحبها بقوة إلى خارج الدائرة المركزية.

كلاهما سقط على الأرض خلف خط الأمان الهش الذي شكّله الانهيار. الكتلة القرمزية كانت تتلوى في الوسط، أصغر مما كانت عليه، وأكثر اضطرابًا، لكنها لا تزال موجودة. لا تزال حية.

سينا كانت شبه مغمى عليها في حضنه، تتنفس بصعوبة، والدم يغطّي جانب وجهها. أنور رفع رأسه نحو الشيء الذي يتلوى في المركز.

الصراع لم ينتهِ بعد.

لكنهما، لأول مرة، كانا قد أدماه.

الفصل الثالث والعشرون

الغرفة كانت تنهار من حولهما ببطء.

شقوق عميقة امتدت عبر الأرضية، وأجزاء من الجدران السبعة تساقطت كالمطر الحجري. الكتلة القرمزية في المركز لم تعد مستقرة؛ كانت تتقلص وتتمدد بشكل عشوائي، تنبض بضوء متقطع كقلب مصاب. لكنها لم تختفِ. كانت لا تزال تجمع نفسها، ببطء وإصرار.

سينا كانت مستلقية على ظهرها، رأسها في حضن أنور. تنفسها سطحي وسريع، والدم من أنفها وأذنيها قد تباطأ لكنه لم يتوقف تمامًا. عندما فتحت عينيها، كان الوعي فيهما واضحًا رغم الألم.

ـ لم نقتله، قالت بصوت خافت مبحوح. فقط... أدماه. سيعود خلال دقائق. ربما أقل.

أنور ينظر إلى الشيء المتلوي في الوسط، ثم إليها. المسدس الإشعاعي كان فارغًا تقريبًا، وذراعه المصابة قد نزفت من جديد بسبب الجهد. لم يعد لديهما الكثير من الوقت ولا من القوة.

سينا رفعت يدها بصعوبة وأمسكت بطرف ثوبه.

ـ أمامنا ثلاثة خيارات الآن. لا رابع لها.

انتظرت حتى ينظر إليها تمامًا، ثم أكملت بصوت هادئ كأنها تشرح مسألة حسابية:

ـ الأول: أقدّم نفسي بالكامل. قربان اختياري حر. كما فعلتُ مرة من قبل. سيتوقف لفترة أطول هذه المرة لأنه مصاب. أنت تستخدم الخطوط المتبقية وتهرب نحو أقرب بوابة ضعيفة. قد تخرج... أو قد تصل إلى طبقة أبعد تستطيع الاختباء فيها سنوات.

ـ لا، قال أنور فورًا.

ـ الثاني: تفعل أنت الشيء نفسه. تقدم نفسك. أنا أعرف الطرق الجانبية أفضل منك. قد أستفيد من التوقف وأصل إلى مكان لا يصل إليه بسهولة.

ـ ولا هذا.

ابتسمت ابتسامة باهتة مكسورة.

ـ أعرف. لذلك يبقى الثالث. نحاول تدميره أكثر. نعكس كل ما تبقى من خطوط دفعة واحدة، ونستخدم ما بقي لنا من قوة معًا. الاحتمال الأكبر أن نموت نحن الاثنان هنا. والاحتمال الأصغر... أن نؤذيه بما يكفي لينهار جزء كبير من هذا المستوى، فيتغير العالم حوله، ويصبح أقل عدائية... ونبقى داخله. معًا. إلى ما لا نهاية ربما.

الصمت ملأ المسافة القصيرة بينهما. صوت تشقق الجدران كان الخلفية الوحيدة. الكتلة القرمزية أصدرت أنينًا جديدًا وبدأت تمدّ خيطًا رفيعًا مترددًا في اتجاههما.

أنور نظر إلى وجه سينا الملطخ بالدم. رأى فيها كل شيء دفعة واحدة: المرأة التي اصطدمت به على السلم، والحالمة التي قضت اثنتي عشرة سنة تقاوم، والأخت التي خسرت ليلى، والشريكة التي امتصت النبضة عمدًا لتمنحه ثوانٍ إضافية.

ثم رأى نورا. ليس كسراب من صنع الكائن، بل كذكرى حقيقية هادئة. أخته التي لوّحت له عند الباب. لو كانت مكانه الآن، ماذا كانت ستختار؟

سألها بصوت منخفض:

ـ إذا بقينا... هل سنبقى نحن؟ أم سيبتلعنا المكان مع الوقت كما فعل بالآخرين؟

سينا أجابت بصراحة مؤلمة:

ـ لا أعرف. ربما نتحول. ربما نحافظ على شيء منا. لكننا لن نكون وحيدين. وهذا... أكثر مما كان لديّ طوال هذه السنين.

الكتلة القرمزية امتدت أكثر. الخيوط صارت أسمك. الوقت كان ينفد.

أنور أمسك يد سينا بكلتا يديه. كانت باردة وملطخة بالدم، لكنها ضغطت على يده بقوة مفاجئة.

ـ اختر، قالت. بسرعة. ولا تعتذر عن أي شيء.

نظر إلى الخطوط المتبقية التي لا تزال تتوهج بضعف حول الدائرة المركزية. ثم نظر إليها من جديد.

ـ الثالث، قال ببساطة. معًا.

سينا أغلقت عينيها لحظة، وكأن كلمة واحدة منها كانت ثقيلة وثقيلة جدًا. ثم فتحتها، وفيها شيء يشبه السلام القديم الممزوج بالخوف.

ـ حسنًا. إذن لا تترك يدي. مهما حدث.

نهضا معًا بصعوبة. جسداهما كانا يرتجفان، لكن خطواتهما نحو حافة الدائرة المركزية كانت ثابتة. حولهما الغرفة تتشقق، والكتلة القرمزية تزأر بصمت يملأ الرأس، والخطوط تنتظر الإشارة الأخيرة.

وأنور وسينا، ممسكين بيد بعضهما، تقدما نحو الخيار الذي لا رجوع عنه.

الفصل الرابع والعشرون

الضوء الأبيض المزرق انفجر للمرة الثانية، أقوى هذه المرة.

الأنوار السائلة في الخطوط المركزية التفت حول بعضها كأفاعي مجنونة، ثم اندفعت كلها دفعة واحدة نحو الكتلة القرمزية. أنور وسينا كانا لا يزالان ممسكين بيد بعضهما، وقدميهما على حافة الدائرة المتصدعة. لم يعودا يدفعان النبضات بعقلين منفصلين؛ صارا قناة واحدة. الألم الذي كان يمزق ذراع أنور ويملأ رأس سينا بالدم صار جزءًا من التيار نفسه.

الكتلة صرخت.

الصوت هذه المرة لم يمر عبر العظام فقط. هو مزق الهواء، وشقق الجدران السبعة دفعة واحدة. قطع بلورية هائلة تساقطت من السقف كالمطر الأسود. الأرض تحت

أقدامهما ارتفعت ثم هبطت، كأن الغرفة كلها تتنهد آخر تنهيدة. الخيوط القرمزية التي كانت تحيط بهما تفككت فجأة، وتحولت إلى رماد خفيف طار في الهواء ثم اختفى.

ثم... الصمت.

ليس صمتًا عاديًا. صمت كثيف، ثقيل، كأن المكان كله قد حبس أنفاسه.

الكتلة القرمزية لم تختفِ. لكنها لم تعد كما كانت. تقلصت إلى حجم أصغر بكثير، وصارت غير مستقرة، ترتعش كقلب مفتوح ينزف ضوءًا باهتًا. أجزاء منها كانت تتفتت وتنجرف بعيدًا مع تيارات الهواء الجديدة التي بدأت تهب داخل الغرفة لأول مرة منذ زمن لا يُحصى. العينان الفارغتان — إن كانتا عينين — أطفأتا توهجهما القرمزي تدريجيًا، حتى لم يبقَ سوى خيوط رفيعة من الضباب الداكن تدور حول نفسها ببطء متعب.

سينا سقطت على ركبتيها، وما زالت تمسك يد أنور. هو انحنى فوقها، يتنفس بصعوبة، والدم من جرحه القديم قد اختلط بتراب الغرفة المتشقق. نظرَا معًا إلى ما تبقى من الكائن.

لم يمت.

لكنه... كُسر.

الخطوط الكبرى على الأرض لم تعد تتوهج باللون القرمزي. صارت رمادية باهتة، وبعضها انقطع تمامًا. الجدران السبعة التي كانت ترفض أن تكون مستقيمة بدأت تميل إلى الداخل ببطء، كأن الهيكل كله يفقد السبب الذي كان يبقيه قائمًا.

ثم حدث التغيير الأكبر.

الضباب الذي كان يملأ السقف بدأ ينحسر. ليس بسرعة، بل كمدّ ينسحب عن شاطئ قديم. ومن خلفه ظهرت سماء... ليست سوداء، ولا بنفسجية. سماء رمادية مائلة إلى الفضي، فيها شيء يشبه الغيوم الحقيقية، تتحرك ببطء منتظم. الهواء صار أخف. الطعم المعدني على اللسان بدأ يتلاشى.

سينا رفعت رأسها بصعوبة. عيناها كانتا محمرتين من الدم والدموع، لكنها كانت تنظر بوضوح.

ـ لقد... غيّرنا الطبقة، همست. ليس كثيرًا. لكن بما يكفي.

أنور نظر حوله. الغرفة ذات الجدران السبعة لم تعد سجنًا مغلقًا. الشقوق في الجدران اتسعت وصارت فتحات تطل على سهول برونزية جديدة، مختلفة عن تلك التي عرفاها. العشب هناك كان أطول قليلاً، وأقل عدوانية في موجاته. في الأفق البعيد، لم يعد هناك عمود قرمزي ينبض. فقط ضباب خفيف يتصاعد كبخار صباحي.

التمثال في القاعة الكبرى — الذي كانا يسمعان أنينه البعيد — انهار فجأة بصوت مكتوم. همهمة الراكعين انقطعت دفعة واحدة، كخيط قُطع.

سينا ضغطت على يد أنور بقوة أكبر.

ـ لن نخرج، قالت بصوت هادئ لا يحمل مرارة هذه المرة. الباب لا يزال في اتجاه واحد. لكن المكان... لن يكون كما كان. الكائن سيحتاج إلى وقت طويل جدًا ليلملم نفسه. وربما لن يستطيع أن يصل إلى هذه الطبقة الجديدة بنفس القوة.

أنور نظر إلى وجهها. الدم جف على خديها، وشعرها الأشقر كان ملطخًا بالغبار البلوري. لكنها كانت تبتسم ابتسامة صغيرة متعبة، مختلفة عن كل ابتساماتها السابقة.

ـ سنبقى هنا إذن، قال. معًا.

ـ معًا، أجابت.

لم يحتاجا إلى كلام أكثر. نهضا ببطء، وما زالا ممسكين بيد بعضهما. سارا نحو إحدى الفتحات الكبيرة في الجدار المنهار. خلفهما، ما تبقى من الكتلة القرمزية كان يتقلص أكثر، ويذوب في الأرضية المتصدعة كجرح يحاول أن ينغلق.

عندما خرجا إلى السهل الجديد، شعر أنور أن الهواء يدخل رئتيه بطريقة مختلفة. أخف، وأنظف، وفيه شيء يشبه... الإمكانية. العشب البرونزي تحت أقدامهما تحرك، لكنه لم يرسل موجات إنذار إلى الأفق. اكتفى بأن يلمس حذاءيهما برفق، ثم يسكن.

سارا مسافة غير محددة. الزمن هنا لم يعد يُقاس بالساعات أو الأيام. كان يُقاس بالخطوات، وبالنظرات، وبالصمت المريح الذي صار يملأ المسافة بينهما بدل الخوف.

في لحظة ما، توقفا على تل منخفض يطل على بحيرة رمادية هادئة. الماء كان يعكس السماء الفضية بطريقة صحيحة هذه المرة. سينا جلست على العشب، وأنور جلس إلى جانبها. لم يتكلمَا عن ليلى، ولا عن نورا. الأسماء كانت لا تزال هناك، داخل كل منهما، لكنها لم تعد سكاكين. صارت جزءًا من التربة التي يقفان عليها.

سينا أسندت رأسها إلى كتفه. هو وضع ذراعه السليمة حولها. الجرح القديم في ذراعه الأخرى كان قد توقف عن النبض، وكأن الطبقة الجديدة رفضت أن تبقي أثر الألم القديم.

في مكان ما بعيد جدًا، خلف طبقات كثيرة من الضباب والقواعد التي لم تعد صارمة كما كانت، كان شيء قديم يحاول أن يتجمع من جديد. لكنه كان أضعف، وأبطأ، وأقل جوعًا. العالم الذي أعاد أنور وسينا تشكيل جزء صغير منه لم يعد يرحب به بنفس السهولة.

في العالم الحقيقي

هدى جلست على كرسي بجانب سرير المستشفى للمرة السابعة والأربعين.

أنور كان لا يزال مستلقيًا كما وجدته قبل أسابيع. الخوذة الرمادية لم تُنزع. الأطباء جربوا كل شيء: فكّها بالقوة كاد يقتل خلايا دماغه، والأجهزة رفضت التفاعل معها كأنها جزء حي من جسده. التنفس منتظم. القلب ينبض. موجات الدماغ... غريبة. ليست موجات نوم عميق، ولا غيبوبة. شيء آخر. شيء لم يسجله أي جهاز من قبل.

في تلك الليلة، بينما كانت هدى تمسك يده الباردة، حدث شيء صغير.

على شاشة مراقبة موجات الدماغ، ظهرت للحظة واحدة فقط سلسلة من النبضات المنتظمة، تشبه شيفرة قديمة. ثم اختفت. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، تحركت أصابع أنور اليسرى حركة خفيفة جدًا، كأنها تضغط على يد غير مرئية.

هدى انحنت إلى الأمام، قلبها يتسارع.

ـ أنور...؟

لم يجب. لكن زاوية فمه تحركت جزءًا من المليمتر. ليس ابتسامة كاملة. مجرد ظل ابتسامة، هادئة، وبعيدة، وكأنها تأتي من مكان لا تستطيع الأجهزة الوصول إليه.

خارج نافذة غرفة المستشفى، كانت سماء نيو القاهرة لا تزال رمادية. لكن هدى، للحظة قصيرة، شعرت أن الغرفة صارت أوسع قليلًا مما كانت عليه.

وأنور، في الطبقة الجديدة من بلدان الأحلام، كان يمشي إلى جانب سينا تحت سماء فضية، والعشب البرونزي يلمس قدميهما برفق، والباب الذي فتحاه ذات ليلة لا يزال خلفهما... محترقًا إلى الأبد.

لكنهما لم يكونا وحدهما بعد الآن.

ولم يعودا خائفين من البقاء.

الفصل الخامس والعشرون

(مشهد خاص)

السماء الفضية فوق التل كانت هادئة لأول مرة منذ دخل أنور هذا العالم. البحيرة الرمادية في الأسفل تعكس ضوءًا باهتًا يشبه ضوء القمر القديم، والعشب البرونزي تحت جسديهما لم يعد يرسل موجات إنذار. المكان كله بدا وكأنه يحبس أنفاسه احتفالًا بما فعلوه.

سينا كانت لا تزال مستندة إلى كتفه، لكنها تحركت فجأة. رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين لم تعد فيهما خوف ولا إرهاق فقط. كان فيهما شيء آخر: جوع حي، عميق، كامن منذ سنوات طويلة.

ـ نحن أحياء، همست. والعالم... تغير. ولو إلى حين.

قبل أن يرد، وضعت فمها على فمه.

القبلة لم تكن رقيقة. كانت جائعة، حارة، مليئة بكل ما كبتاه طوال الطريق: الدم، والرعب، والخسارة، والانتصار الهش. لسانها دخل فمه بجرأة، وأسنانها عضّت شفته السفلى حتى أحس بطعم معدني خفيف. أنور أجابها بنفس الشراسة. يده السليمة انزلقت إلى مؤخرة رأسها وأمسكت بشعرها الأشقر الملطخ بالغبار والدم الجاف، وشدّته بقوة كافية لتُصدر أنينًا مكتومًا في حلقها.

انفصلَا لحظة قصيرة فقط ليتنفسَا. جبيناهما متلامسان، وأنفاسهما تختلط.

ـ أريدك الآن، قالت بصوت مبحوح. هنا. على هذا العشب. قبل أن يعود أي شيء ليسرق منا هذه اللحظة.

أنور لم ينتظر إذنًا ثانيًا.

قلبها على ظهرها فوق العشب البرونزي الناعم. الأوراق الريشية القصيرة لامست جلدها المكشوف كألسنة صغيرة دافئة. مزق ما تبقى من قميصها الممزق أصلًا دفعة واحدة، فظهرت بشرة صدرها الشاحبة، والثديان الصغيران المرتفعان، والحلمات الوردية الداكنة التي تصلبت فورًا من البرد والإثارة. انحنى وأطبق فمه على إحداهما بقوة، مصّها بعنف وهو يعضها بلطف قاسٍ في الوقت نفسه. سينا قوّست ظهرها وصرخت صرخة قصيرة حادة، ويداها غاصتا في شعره.

ـ أقوى... أرجوك...

يده انزلقت إلى أسفل، مزقت ما تبقى من سروالها الداخلي الملطخ بالدماء القديمة. وجدها مبللة بالكامل، ساخنة، تنبض تحت أصابعه. أدخل إصبعين دفعة واحدة بعمق، فصرخت من جديد ورفعت وركيها نحوه. كان داخلها ضيقًا وحرًّا بشكل جنوني، يتقلص حول أصابعه كأنه يريد ابتلاعهما. حركهما بسرعة قاسية، بينما إبهامه يضغط على بظرها المنتفخ ويدوره بقوة.

سينا كانت تتلوى تحته كامرأة مجنونة. ساقاهما مفتوحتان على اتساعهما، والعشب البرونزي يلتصق بظهرها العاري كلما تحركت. صوت بللها كان واضحًا ومثيرًا في الصمت المحيط بهما. أنور سحب أصابعه فجأة، ورفعها إلى فمه، ولعقها ببطء وهو

ينظر في عينيها. طعمها كان مالحًا وحلوًا في آن، ومختلطًا ببقايا الدم والمعادن من هذا العالم.

ـ أنتِ لذيذة بشكل إجرامي، قال بصوت أجش.

ثم فتح سرواله. قضيبه كان منتصبًا بقوة مؤلمة، الأوردة بارزة، والرأس المتورم يلمع بسائل شفاف. سينا نظرت إليه بعيون نصف مغمضة، ومدت يدها وأمسكت به بقوة، حرّكته مرتين أو ثلاثًا بقبضة محكمة، ثم شدّته نحوها.

ـ ادخله. كله. الآن.

أنور وضع رأس قضيبه على مدخلها المبلل، ودفع دفعة واحدة عنيفة حتى غاص بالكامل داخلها. صرخت سينا صرخة طويلة مكسورة، وساقاهما التفّتا حول خصره بشدة. كان ضيقها يحرقه من الداخل، دافئًا ورطبًا ومنقبضًا كقبضة محكومة. بدأ يتحرك فورًا، بضربات عميقة وسريعة، لا رقة فيها. كل دفعة كانت تُخرج صوت ارتطام لحم بلحم، وصوت أنينها المتقطع.

العشب تحتها تحرك هذه المرة بطريقة مختلفة. لم يرسل إشارات خطر. بدا وكأنه يلتف حول جسديهما بلطف غريب، كأنه يشاركهما الاحتفال. السماء الفضية فوقهما بدت أقرب، والضوء ينعكس على عرق صدر أنور وبطن سينا اللزج.

ـ أسرع... اضربني أقوى... أريد أن أشعر بك في حلقي، تمتمت وهي تخدش ظهره بأظافرها حتى أدمت الجلد.

أنور أطاع. رفع ساقيها ووضعهما على كتفيه، وانحنى فوقها أكثر، وبدأ يطعنها بعمق وحشية محببة. كل دفعة كانت تجعل ثدييها يهتزان، وتجعل عينيها تتدحرجان إلى الخلف. صوت صفعة بطنه على فخذيها صار أعلى من أنفاسهما. سينا كانت تصرخ الآن بلا خجل، كلمات بذيئة متقطعة تختلط بأنينها:

ـ نعم... هكذا... املأني... كسرني إن أردت... أنا لك...

عندما أحس أنها تقترب، سحب قضيبه فجأة، فأنّت من الخسارة. قلبها على بطنها بسرعة، ورفع وركيها عاليًا، وأدخل نفسه من الخلف دفعة واحدة حتى ارتطمت خصيتاه بجلدها. الصرخة التي خرجت منها كانت أخشن وأكثر حيوانية. بدأ ينكحها بقوة

مجنونة، إحدى يديه تمسك بشعرها وتشده إلى الخلف، والأخرى تضرب مؤخرتها الطرية صفعة مدوية بعد أخرى حتى احمرّ الجلد.

سينا كانت تدفع وركيها إلى الخلف بكل قوة، تستقبله حتى آخر سنتيمتر. العرق يسيل من جسديهما ويختلط بتراب التل والعشب. أنور انحنى أكثر، وعض كتفها بقوة كافية لتترك أثرًا، بينما قضيبه يضرب عنق رحمها في كل دفعة.

ـ سأنتهي داخلك، هدر في أذنها. كله. لن أخرج قطرة واحدة خارجك.

ـ افعلها... أرجوك... املأني حتى الفيضان...

عندما جاء النشوة، جاءَا معًا.

سينا تشنجت تحته كقوس مشدود، وداخلها انقبض حول قضيبه بعنف متكرر حتى كاد يسلخه من اللذة. صرخت اسمه بصوت مكسور طويل. أنور دفع آخر دفعة عميقة وصبّ داخلها كل ما فيه، نبضة بعد نبضة، حارًا وكثيفًا، حتى شعر بالسائل يفيض من حول قضيبه ويسيل على فخذيها.

ظلا متصلين لفترة طويلة بعد ذلك، يتنفسان بصعوبة، وجسدا هما يرتعشان. أنور لم يخرج منها. بقي داخلها وهو يقبل رقبتها وكتفها بعضات خفيفة، وهي تئن تحتها بصوت راضٍ ومتعَب.

عندما انفصلَا أخيرًا، انساب سائل أبيض كثيف من بين فخذيها على العشب البرونزي. العشب لم يرفضه. بدا وكأنه يمتصه ببطء، كقربان صغير جديد من نوع مختلف تمامًا.

سينا استدارت إليه، ووجهها محمر وعيناها لامعتان.

ـ احتفلنا، همست وهي تمسح بأصبعها ما تبقى من سائله على فخذها ثم تلعقه ببطء. والعالم... لا يزال هادئًا.

أنور قبلها قبلة أبطأ هذه المرة، لكنها لم تكن أقل اشتعالًا.

في الطبقة الجديدة التي خلقاها معًا، كان الحب فاحشًا وحرًا وحيًا مثل كل شيء آخر هنا.

وللمرة الأولى منذ دخل الباب الذي يفتح في اتجاه واحد، لم يكن الخوف هو ما يملأ الصمت بعد اللذة.

كان شيء آخر.

شيء يشبه السلام... المبلل والساخن والمشترك.